﴿هَذَا الْكِتَابُ أُلِّفَ قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ!!﴾

تَفْضِيلُ الْكِلَابِ

عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ لَبِسَ الثِّيَابَ

تَأْلِيفُ

الْإِمَامِ الْعَلَّامَةِ، أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ خَلَفِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ

- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -

هَذَّبَهُ، وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ، وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلٍ أَبُو الْفِيتَةَ

أَبُو حَمْزَةَ

تَرْجَمَةُ الْمُؤَلِّفِ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – مِنْ سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ

قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٤٨هـ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى –:

"الْإِمَامُ، الْعَلَّامَةُ، الْأَخْبَارِيُّ، أَبُو بَكْرٍ: مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ بْنِ بَسَّامٍ الْمُحَوَّلِيُّ الْبَغْدَادِيُّ الْآجُرِّيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ.

حَدَّثَ عَنْ: الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ، وَأَحْمَدَ بْنِ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيِّ، وَمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ الْأَزْدِيِّ – لَا الْعَسْقَلَانِيِّ –، وَأَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي الدُّنْيَا، وَعِدَّةٍ.

حَدَّثَ عَنْهُ: أَبُو بَكْرِ بْنُ الْأَنْبَارِيُّ، وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ، وَأَبُو عُمَرَ ابْنُ حَيُّوَيَهِ، وَآخَرُونَ.

وَقَعَ لِي قِطْعَةٌ مِنْ تَآلِيفِهِ، وَلَهُ كِتَابُ: (الْحَاوِي فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ)، وَكِتَابٌ فِي (الْحَمَاسَةِ)، وَكِتَابُ: (الْمُتَيَّمِينَ)، وَكِتَابُ: (أَخْبَارِ الشُّعَرَاءِ) وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَكَانَ صَدُوقًا.

مَاتَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِ مِائَةٍ، فِي عَشْرِ الثَّمَانِينَ، أَوْ جَاوَزَهَا" اهـ.

قُلْتُ: وَمِنْ تَصَانِيفِهِ – أَيْضًا –، كِتَابُ: (مَنْ أَقَامَ عَلَى الْمَوَدَّةِ وَالْوَفَا وَلَمْ تَدعْهُ نَفْسُهُ إِلَى الْغَدْرِ وَالْجَفَا)، وَكِتَابُ: (ذَمِّ الثُّقَلَاءِ)، وَكِتَابُ: (الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)، وَكِتَابُ: (النِّسَاءِ وَالْغزَلِ)، وَكِتَابُ: (مَنْ غَدَرَ وَخَانَ)، وَكِتَابُ: (الْمُرُوءَةِ)، وَكِتَابُ: (تَفْضِيلِ الْكِلَابِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ لَبِسَ الثِّيَابِ).[1]

تَذْكِيرٌ مُهِمٌّ! إِلَى مَنْ يَهُمُّهُ الْأَمْرُ:

تَعْلَمُونَ – وَفَّقَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ – أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – حَكَمٌ عَدْلٌ، يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، قَالَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

وَتَعْلَمُونَ – حَفِظَكُمُ اللهُ – أَنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلَا يَرْضَى – سُبْحَانَهُ – بِالظُّلْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أَلَا وَإِنَّ مِنَ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ: تَشْبِيهَ مَنْ هُمْ مَوْصُوفُونَ مَشْهُورُونَ بِالْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ؛ بِمَنْ هُمْ مَشْهُورُونَ بِالْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ!!.

---

[1] الْوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ؛ لِلصَّفَدِيِّ – الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٦٤هـ –، وَتَوْضِيحُ الْمُشْتَبِهِ؛ لِابْنِ نَاصِرِ الدِّينِ الدِّمَشْقِيِّ – الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٨٤٢هـ –.

فَالْمَشْهُورُونَ بِالْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ؛ هُمْ: أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ، وَأَخُصُّ بِالذِّكْرِ: الْفِرْقَةَ الضَّالَّةَ، الْمُسَمَّاةَ بِـ(جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ)!.

وَالْمَشْهُورُونَ بِالْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ؛ هُمْ: (الْكِلَابُ)!.

فَكَيْفَ يُشَبَّهُ الْخَوَنَةُ بِالْأَوْفِيَاءِ؟! أَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ؟! أَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ قَوْلِ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾؟!!.

فَإِذَا أَرَدْتُمْ – يَا أَهْلَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ – تَشْبِيهَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ بِالْكِلَابِ؛ فَلْيَكُنِ التَّشْبِيهُ فِي شَيْءٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا؛ فَقُولُوا – مَثَلًا –: الْفِرَقُ الضَّالَّةُ عِنْدَهَا اعْوِجَاجٌ كَاعْوِجَاجِ ذَيْلِ الْكَلْبِ!.

أَمَّا أَنْ تَقُولُوا: الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ – مَثَلًا – خَوَنَةٌ كَالْكِلَابِ؛ فَلَا! وَأَلْفُ لَا!!.

فَمَا عُرِفَ فِي التَّارِيخِ أَنَّ كَلْبًا خَانَ صَاحِبَهُ!! وَلَا سَمِعْنَا يَوْمًا عَنْ كَلْبٍ أَحْسَنَ أَصْحَابُهُ إِلَيْهِ فَغَدَرَهُمْ!!.[2]

فَالْعَدْلَ الْعَدْلَ! يَا أَهْلَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ!!.

وَرْطَةٌ! فَمَا الْمَخْرَجُ؟!

مَاذَا سَيَكُونُ مَوْقِفُكُمْ لَوْ أَنَّ اللهَ – جَلَّتْ قُدْرَتُهُ – أَنْطَقَ كَلْبًا – مِنَ الْكِلَابِ – وَتَكَلَّمَ بِكَلَامِ الْإِنْسِ![3] وَطَلَبَ مِنْكُمْ – ذَلِكَ الْكَلْبُ – تَحْكِيمَ الشَّرِيعَةِ فِيمَا نَسَبْتُمُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الْغَدْرِ وَالْخَدِيعَةِ؟! فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟! وَبِأَيِّ شَيْءٍ سَتَعْتَذِرُونَ؟!!.

---

[2] قِيلَ: مِنْ خَوَاصِّ الْكَلْبِ الْعَجِيبَةِ: **أَنَّهُ لَا يَلَغُ فِي دَمِ مُسْلِمٍ!!** [الاغتراب في أحكام الكلاب؛ لابن عبد الهادي – المتوفى سنة ٩٠٩هـ –].

[3] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: [بَيْنَمَا رَاعٍ يَرْعَى بِالْحَرَّةِ، إِذْ]عَدَا الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ [مِنَ الشِّيَاهِ]، فَأَخَذَهَا، فَطَلَبَهُ الرَّاعِي، فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ! فَأَقْعَى الذِّئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ؛ فَقَالَ: [يَا عَبْدَ اللهِ!] أَلَا تَتَّقِي اللهَ! تَنْزِعُ مِنِّي رِزْقًا سَاقَهُ اللهُ إِلَيَّ؟! فَقَالَ الرَّاعِي: يَا عَجَبِي!! ذِئْبٌ مُقْعٍ عَلَى ذَنَبِهِ، يُكَلِّمُنِي كَلَامَ الْإِنْسِ!!! فَقَالَ الذِّئْبُ لِلرَّاعِي: أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟! مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِيَثْرِبَ يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ! قَالَ: فَأَقْبَلَ الرَّاعِي يَسُوقُ غَنَمَهُ، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَزَوَاهَا إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَخْبَرَهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَنُودِيَ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ! ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِلرَّاعِي: «**أَخْبِرْهُمْ**»؛ فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**صَدَقَ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ!! لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ، وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَيُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ!!**» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَالطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مُشْكَلِ الْآثَارِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ؛ وَصَحَّحَهُ الْإِمَامُ فِي الصَّحِيحَةِ(١٢٢)، وَالتَّعْلِيقَاتِ الْحِسَانِ(٦٤٦٠)].

اعْتِرَاضٌ وَجَوَابُهُ:

فَإِنِ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ، فَقَالَ: وَهَلْ يُعْقَلُ(!) أَنْ تَكُونَ الْكِلَابُ أَفْضَلَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؟!!

فَالْجَوَابُ: قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَدُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ –:

"فَإِنَّ فِي النَّاسِ: الْكُفَّارَ، وَالْفُجَّارَ، وَالْجَاهِلِينَ، وَالْمُسْتَكْبِرِينَ، وَالْمُؤْمِنِينَ، وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ مِثْلُ الْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ!! بَلِ الْأَنْعَامُ أَحْسَنُ حَالًا مِنْ هَؤُلَاءِ؛ كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي مَوَاضِعَ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

وَالدَّوَابُّ: جَمْعُ دَابَّةٍ؛ وَهُوَ كُلُّ مَا دَبَّ فِي سَمَاءٍ وَأَرْضٍ، مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَمَلَكٍ وَبَهِيمَةٍ.

فَفِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِ الْبَهَائِمِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي خَمْسِ آيَاتٍ.

وَقَدْ وَضَعَ (ابْنُ الْمَرْزُبَانِ) كِتَابَ: (تَفْضِيلُ الْكِلَابِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ لَبِسَ الثِّيَابَ).

وَقَدْ جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَأْثُورِ مَا لَا نَسْتَطِيعُ إِحْصَاءَهُ" اهـ مِنْ مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى.



أَحْكَامٌ مُهِمَّةٌ مُخْتَصَرَةٌ – مِنْ صَحِيحِ السُّنَّةِ – تَتَعَلَّقُ بِالْكِلَابِ، يَحْسُنُ ذِكْرُهَا هَا هُنَا:

١- مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا: لَيْسَ بِكَلْبِ زَرْعٍ، وَلَا صَيْدٍ، وَلَا مَاشِيَةٍ؛ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ، وَالْقِيرَاطُ الْوَاحِدُ: مِثْلُ أُحُدٍ!.

٢- إِذَا وَلَغَ[٤] الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ؛ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أُولَاهُنَّ بِالتُّرَابِ.[٥]

٣- الْمَلَائِكَةُ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلَا صُورَةٌ.

٤- لَا تَصْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ وَلَا جَرَسٌ.

٥- الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الْمُصَلِّي وَسُتْرَتِهِ أَوْ لَمْ يَكُنْ سُتْرَةٌ؛ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، وَإِنْ مَرَّ مِنْ وَرَاءِ سُتْرَتِهِ؛ لَمْ تَبْطُلْ.

٦- الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ!.

٧- إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكِلَابِ، وَنَهِيقَ الْحَمِيرِ مِنَ اللَّيْلِ؛ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ!.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَكَتَبَ:

أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلٍ أَبُو الْفِيتَةَ

أَبُو حَمْزَةَ

---

[٤] (**وَلَغَ**) الْكَلْبُ فِي الْإِنَاءِ وَفِي الشَّرَابِ يَلَغُ – بِفَتْحِ اللَّامِ فِيهِمَا – (وُلُوغًا)؛ أَيْ: شَرِبَ مَا فِيهِ بِأَطْرَافِ لِسَانِهِ، أَوْ: أَدْخَلَ لِسَانَهُ فِيهِ فَحَرَّكَهُ [مختار الصحاح؛ لزين الدين الرازي – المتوفى سنة ٦٦٦هـ –، مادة: (و ل غ)، والقاموس المحيط؛ للفيروز آبادي – المتوفى سنة ٨١٧هـ –].

[٥] **فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ**: هَلْ يَقُومُ الصَّابُونُ – وَنَحْوُهُ – مَقَامَ التُّرَابِ؟ الْجَوَابُ: الْأَظْهَرُ وَالْأَقْوَى: أَنَّهُ لَا يَقومُ الصَّابُونُ – وَنَحْوُهُ – مَقَامَ التُّرَابِ. وَانْظُرْ: (شِفَاءَ الْعَلِيلِ وَبَلّ الْغَلِيلِ فِي شَرْحِ الدَّلِيلِ)، صـ٢٤٩ لِكَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ – عَفَا اللهُ عَنْهُ –.

نَصُّ الْكِتَابِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

أَنْبَأَنَا الْفَقِيهُ أَبُو مُوسَى عِيسَى بْنُ أَبِي عِيسَى الْقَابِسِيُّ[٦]، قَالَ: أَنْبَأَنَا الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ الْمُحَسِّنِ بْنِ عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ[٧] قِرَاءَةً عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا بْنِ حَيُّوَيْهِ الْخَزَّازُ[٨]، وَلَفَظَهُ عَلَيْنَا فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ؛ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ خَلَفِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ، أَخْبَرَهُمْ، قَالَ:

ذَكَرْتَ – أَعَزَّكَ اللهُ – زَمَانَنَا هَذَا(!) وَفَسَادَ مَوَدَّةِ أَهْلِهِ! وَخِسَّةَ أَخْلَاقِهِمْ! وَلُؤْمَ طِبَاعِهِمْ! وَأَنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ سَفَرًا؛ مَنْ كَانَ سَفَرُهُ فِي طَلَبِ أَخٍ صَالِحٍ!![٩]

وَمَنْ حَاوَلَ صَاحِبًا يَأْمَنُ زَلَّتَهُ، وَيَدُومُ اغْتِبَاطُهُ بِهِ؛ كَانَ كَصَاحِبِ الطَّرِيقِ الْحَيْرَانِ: الَّذِي لَا يَزْدَادُ لِنَفْسِهِ إِتْعَابًا؛ إِلَّا ازْدَادَ مِنْ غَايَتِهِ بُعْداً! فَالْأَمْرُ كَمَا وَصَفْتَ!!.

وَقَدْ يُرْوَى عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ وَرَقًا لَا شَوْكَ فِيهِ، فَصَارُوا شَوْكًا لَا وَرَقَ فِيهِ!».[١٠]

---

[٦] هُوَ: عِيسَى بْنُ أَبِي عِيسَى بْنِ بَزَّار، أَبُو مُوسَى الْقَابِسِيُّ الْفَقِيْهُ الْمَالِكِيُّ الْحَافِظُ، تُوُفِّيَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ [تاريخ دمشق؛ لابن عساكر].

[٧] هُوَ: الْقَاضِي، الْعَلَّامَةُ، أَبُو عَلِيٍّ الْمُحَسِّنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْفَهْمِ التَّنُوخِيُّ، الْبَصْرِيُّ، الْأَدِيبُ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ. وَكَانَ إِخْبَارِيًّا مُتَفَنِّنًا، شَاعِرًا، نَدِيمًا، وَلِيَ قَضَاءَ رَامَهُرْمُزَ، وَعَسْكَرَ مُكْرَمٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

قَالَ الْخَطِيبُ: كَانَ سَمَاعُهُ صَحِيْحًا، تُوُفِّيَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ [سير أعلام النبلاء].

قُلْتُ: عَسْكَرُ مُكْرَمٍ: مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ بِأَرْضِ الْأَهْوَازِ، بَنَاهَا مُكْرَمُ بْنُ مُعَاوِيَةَ.

[٨] هُوَ: الْإِمَامُ، الْمُحَدِّثُ، الثِّقَةُ، الْمُسْنِدُ، أَبُو عُمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى الْبَغْدَادِيُّ، الْخَزَّازُ، ابْنُ حَيّويَه، مِنْ عُلَمَاءِ الْمُحَدِّثِينَ، قَالَ الْخَطِيبُ: كَانَ ثِقَةً، كَتَبَ طُولَ عُمُرِهِ، وَرَوَى الْمُصَنَّفَاتِ الْكِبَارَ.

قَالَ الْعَتِيقِيُّ: مَاتَ فِي رَبِيعٍ الْآخِرِ، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ. [سير أعلام النبلاء].

[٩] عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: شَيْئَانِ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعَزَّ مِنْهُمَا، لَا يَزْدَادَانِ إِلَّا قِلَّةً: أَخٌ فِي اللهِ يُسْكَنُ إِلَيْهِ! وَدِرْهَمٌ حَلَالٌ يُوضَعُ فِي حَقٍّ [العزلة؛ للخطابي – المتوفى سنة ٣٨٨هـ –].

[١٠] انْظُرِ: الضَّعِيفَةَ، تَحْتَ الْحَدِيثِ: (٥٦٣٧)، وَبَهْجَةَ الْمَجَالِسِ وَأُنْسَ الْمُجَالِسِ؛ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، بَاب الِاسْتِيحَاشِ مِنَ النَّاسِ وَالْفِرَارِ مِنْهُمْ!.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كُنَّا نَخَافُ عَلَى الْإِخْوَانِ كَثْرَةَ الْمَوَاعِيدِ وَشِدَّةَ الِاعْتِذَارِ أَنْ يَخْلِطُوا مَوَاعِيدَهُمْ بِالْكَذِبِ، وَاعْتِذَارَهُمْ بِالتَّزَيُّدِ[١١]! فَذَهَبَ الْيَوْمُ مَنْ يَعْتَذِرُ بِالْخَيْرِ، وَمَاتَ مَنْ كَانَ يَعْتَذِرُ مِنَ الذَّنْبِ!!.

قَالَ لَبِيدٌ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ[١٢] كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ!

وَأَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ[١٣]، قَالَ: حَدَّثَنِي بَعْضُ مَشَايِخِنَا، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ[١٤] يَوْمًا، فَرَأَيْتُهُ مَغْمُومًا! مَا تَكَلَّمَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ؛ فَقَالَ:

ذَهَبَ الرِّجَالُ الْمُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ ... وَالْمُنْكِرُونَ لِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرِ

وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ يُزَيِّنُ بَعْضُهُمْ ... بَعْضًا لِيَدْفَعَ مُعْوِرٌ عَنْ مُعْوِرِ[١٥]

وَأَنْشَدَنَا لِغَيْرِهِ:

ذَهَبَ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا ... سُرُّوا وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِالْمُقْبِلِ!

وَبَقِيَ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا ... عَبَسُوا وَقَالُوا: لَيْتَهُ لَمْ يُقْبِلِ!!

---

[١١] قَالُوا: أَمْرَانِ لَا يَسْلَمَانِ مِنَ الْكَذِبِ: كَثْرَةُ الْمَوَاعِيدِ، وَشِدَّةُ الِاعْتِذَارِ! [بهجة المجالس وأنس المجالس؛ لابن عبد البر - المتوفى سنة ٤٦٣هـ -].

[١٢] الْخَلَفُ بِالتَّحْرِيكِ وَالسُّكُونِ: كُلُّ مَنْ يَجِيءُ بَعْدَ مَنْ مَضَى، إِلَّا أَنَّهُ بِالتَّحْرِيكِ فِي الْخَيْرِ، وَبِالتَّسْكِينِ فِي الشَّرِّ، يُقَالُ: خَلَفُ صِدْقٍ، وخَلْفُ سُوءٍ، وَمَعْنَاهُمَا جَمِيعًا: الْقَرْنُ مِنَ النَّاسِ [النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، مَادَّة: (خَلَفَ)، وَانْظُرْ - لِلْفَائِدَةِ -: أَضْوَاءَ الْبَيَانِ؛ لِلشِّنْقِيطِيِّ السَّلَفِيِّ، تَحْتَ الْآيَة ٥٩ مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ].

[١٣] هُوَ: إِمَامُ النَّحْوِ، أَبُو الْعَبَّاسِ، مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْأَكْبَرِ الْأَزْدِيُّ، الْبَصْرِيُّ، النَّحْوِيُّ، الْأَخْبَارِيُّ، صَاحِبُ (الْكَامِلِ). وَكَانَ إِمَامًا، عَلَّامَةً، جَمِيلًا، وَسِيمًا، فَصِيحًا، مُفَوَّهًا، مُوَثَّقًا، صَاحِبُ نَوَادِرَ وَطُرَفٍ.

مَاتَ الْمُبَرِّد: فِي أَوَّلِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ [سير أعلام النبلاء].

[١٤] هُوَ: الْإِمَامُ، الْعَالِمُ، الْمُحَدِّثُ، الزَّاهِدُ، الرَّبَّانِيُّ، الْقُدْوَةُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ، أَبُو نَصْرٍ الْمَرْوَزِيُّ، ثُمَّ الْبَغْدَادِيُّ، الْمَشْهُورُ: بِالْحَافِي، وُلِدَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ: مَا أَخْرَجَتْ بَغْدَادُ أَتَمَّ عَقْلًا مِنْ بِشْرٍ، وَلَا أَحْفَظَ لِلِسَانِهِ، كَانَ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْهُ عَقْلٌ، وَطِئَ النَّاسُ عَقِبَهُ خَمْسِينَ سَنَةً، مَا عُرِفَ لَهُ غِيبَةٌ لِمُسْلِمٍ! مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْهُ!.

مَاتَ بِشْرٌ الْحَافِي - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ - يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ، قَبْلَ الْمُعْتَصِمِ الْخَلِيفَةِ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ، وَعَاشَ خَمْسًا وَسَبْعِينَ سَنَةً [سير أعلام النبلاء].

[١٥] (رَجُلٌ مُعْوِرٌ): سَيِّءُ الْأَخْلَاقِ، قَبِيحُ الْأَعْمَالِ [معجم الغني، مادة: (ع و ر)].

وَقَالَ آخَرُ:

ذَهَبَ النَّـاسُ وَاسْتَقَلُّوا[16] وَصِرْنَا ... خَلْـفًا فِـي أَرَاذِلِ النَّسْنَـــاسِ[17]
فِي أُنَـاسٍ تَرَاهُـمُ الْعَيْـــنُ نَاسًـا ... فَإِذَا خُبِّـرُوا فَلَيْسُــوا بِنَـــاسِ!

وَقَالَ آخَرُ:

ذَهَبَ الْمِـلْحُ مِنْ كَثِيـرٍ مِنَ النَّا ... سِ وَمَـاتَ الَّذِينَ كَـانُوا مِـلَاحَا
وَبَقِيَ الْأَسْمَجُونَ مِنْ كُـلِّ صِنْفٍ ... لَيْتَ ذَا الْمَوْتَ مِنْهُمْ قَدْ أَرَاحَـا![18]

وَقَالَ آخَرُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ إِذَا مَرِضْتُ تَجَهَّـلُوا ... وَإِذَا جَهِلْتُ عَلَيْهِمُ لَمْ يَجْهَـلُوا
وَإِذَا أَصَبْـتُ غَنِيمَةً فَرِحُـــوا بِهَا ... وَإِذَا بَخِلْتُ عَلَيْهِمُ لَـمْ يَبْخَلُوا

وَأَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ اللهِ السَّدُوسِيُّ:

ذَهَبَ الَّذِينَ هُمُ الْغِيَاثُ الْمُسْبَلُ ... وَبَقِـيَ الَّذِينَ هُمُ الْعَذَابُ الْمُنْزَلُ
وَتَقَطَّعَتْ أَرْحَـامُ أَهْـلِ زَمَانِنَـــا ... فَكَـأَنَّمَا خُلِـقَتْ لِئَـــلَّا تُوصَـلُ!
النَّـاسُ مُشْـتَبِهُـونَ مَـنْ كَشَّفْـتَهُ ... مِنْهُمْ كَشَفْتَ عَنِ الَّذِي لَا يُحْمَلُ!!

---

[16] (اسْتَقَلَّ الْقَوْمُ): مَضَوْا وَارْتَحَلُوا.

[17] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: ذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَاسُ! فَقِيلَ لَهُ: وَمَا النَّسْنَاسُ؟ قَالَ: يُشْبِهُونَ النَّاسَ، وَلَيْسُوا بِالنَّاسِ! [الزهد لأبي داود، والزهد الكبير للبيهقي، ومساوئ الأخلاق للخرائطي، والعزلة للخطابي، وأبو نعيم في الحلية – عن ابن عباس –؛ وغيرهم، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لابن الأثير – المتوفى سنة ٦٠٦هـ –، مادة: (نسنس)].

قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي الْعُزْلَةِ: فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ النَّاسِ! فَقَدْ قَلَّ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَاسُ؛ ذِئَابٌ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ! إِنِ اسْتَفْرَدْتَهُمْ حَرَمُوكَ، وَإِنِ اسْتَنْصَرْتَهُمْ خَذَلُوكَ، وَإِنِ اسْتَنْصَحْتَهُمْ غَشُّوكَ، وَإِنْ كُنْتَ شَرِيفًا حَسَدُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضِيعًا حَقَرُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ عَالِمًا ضَلَّلُوكَ وَبَدَّعُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا عَيَّرُوكَ وَلَمْ يُرْشِدُوكَ، إِنْ نَطَقْتَ، قَالُوا: مِكْثَارٌ مِهْذَارٌ صَفِيقٌ! وَإِنْ سَكَتَّ قَالُوا: غَبِيٌّ بَلِيدٌ بَطِيءٌ! وَإِنْ تَعَمَّقْتَ، قَالُوا: مُتَكَلِّفٌ مُتَعَمِّقٌ! وَإِنْ تَغَافَلْتَ، قَالُوا: جَاهِلٌ أَحْمَقُ!.

فَمُعَاشَرَتُهُمْ دَاءٌ وَشَقَاءٌ، وَمُزَايَلَتُهُمْ دَوَاءٌ وَشِفَاءٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الدَّوَاءِ مَرَارَةٌ وَكَرَاهَةٌ! فَاخْتَرِ الدَّوَاءَ بِمَرَارَتِهِ وَكَرَاهَتِهِ عَلَى الدَّاءِ بِغَائِلَتِهِ وَآفَتِهِ. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ اهـ.

[18] وَفِي رَوْضَةِ الْعُقَلَاءِ لِابْنِ حِبَّانَ: ذَهَبَ الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ مِنَ النَّاسِ ... وَمَاتَ الَّذِيـنَ كَانُوا مِلَاحَـــا
وَبَقِيَ الْأَسْمَجُونَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ... إِنَّ فِي الْمَوْتِ مِنْ أُولَئِكَ رَاحَا.

أَمَّــا الْفَقِـيرُ فَحَـاسِدٌ مُتَفَطِّرٌ   حَسَــدًا وَأَمَّــا ذُو الثَّـرَاءِ فَيَبْخَلُ
وَيَظُــنُّ أَنَّ لَـــهُ بِكَـثْرَةِ مَــالِـهِ   فَضْـلًا عَلَيْكَ وَغَيْـرُهُ الْمُتَـفَضِّلُ

وَقَالَ آخَرُ:

ذَهَـبَ الْكِـرَامُ فَأَصْبَحُوا أَمْوَاتَا   وَرَقًــا تُطَيِّــرُهُ الرِّيَــاحُ رُفَــاتَا[19]
وَتَبَدَّلَتْ عَرَصَاتُهُمْ[20] مِنْ بَعْدِهِمْ   بِسِـوَى نَبَـاتِ الصَّالِحِينَ نَبَـاتَا
وَبَقِـيتُ فِي دَهْـرٍ أُحَـاذِرُ شَـرَّهُ   وَأَخَـافُ فِيــهِ مِنَ الطَّرِيقِ بَيَــاتَا[21]

وَقَالَ آخَرُ:

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ   وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ
وَمَا كُلُّ مَنْ تَهْوَى يُحِبُّـكَ قَلْــبُهُ   وَلَا كُلُّ مَنْ صَاحَبْتَهُ لَكَ مُنْصِفُ!!

وَسَأَلْتَنِي – أَعَزَّكَ اللهُ تَعَالَى – أَنْ أَجْمَعَ لَكَ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْكَلْبِ عَلَى شِرَارِ (الْإِخْوَانِ!)، وَمَحْمُودِ خِصَالِهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ؛ فَقَدْ جَمَعْتُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ وَبَيَانٌ! وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّكَ – أَعَزَّكَ اللهُ – عَارِفٌ بِخَبَرِ عَبْدِاللهِ بْنِ هِلَالٍ الْكُوفِيِّ الْمَجْذُومِ، صَاحِبِ الْخَاتَمِ[22]، وَخَبَرِ جَارِهِ؛ لَمَّا سَأَلَهُ أَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا إِلَى إِبْلِيسَ – لَعَنَهُ اللهُ – فِي حَاجَةٍ لَهُ، فَإِنْ كَانَ الْعَقْلُ يَدْفَعُ ذَلِكَ الْخَبَرَ؛ فَهُوَ مَثَلٌ حَسَنٌ يُعْرَفُ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ! فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْكِتَابَ! وَأَكَّدَهُ غَايَةَ التَّأْكِيدِ! وَمَضَى، وَأَوْصَلَ الْكِتَابَ إِلَى إِبْلِيسَ! فَقَرَأَهُ وَقَبَّلَهُ، وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ! وَقَالَ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَبِي مُحَمَّدٍ!! فَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: لِي جَارٌ مُكْرِمٌ، شَدِيدُ الْمَيْلِ إِلَيَّ، شَفُوقٌ

---

[19] (الرُّفَاتُ): الْحُطَامُ وَالْفُتَاتُ؛ وَهِيَ الْأَجْزَاءُ الْمُتَفَتِّتَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَحَطَّمَ.

[20] (الْعَرْصَةُ): كُلُّ بُقْعَةٍ بَيْنَ الدُّورِ وَاسِعَةٍ لَيْسَ فِيهَا بِنَاءٌ، وَالْجَمْعُ: عِرَاصٌ، وَعَرَصَاتٌ، وَسُمِّيَتْ سَاحَةُ الدَّارِ عَرْصَةً؛ لِأَنَّ الصِّبْيَانَ يَعْتَرِصُونَ فِيهَا، أَيْ: يَلْعَبُونَ وَيَمْرَحُونَ! [القاموس المحيط، والمصباح المنير؛ للفيومي – المتوفى سنة ٧٧٠هـ –، مادة: (ع ر ص)].

[21] وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَى الشَّافِعِيِّ:

لَيْتَ الْكِلَابَ لَنَا كَانَتْ مُجَاوِرَةً   وَلَيْتَنَا لا نَرَى مِمَّا نَـرَى أَحَدَا
إِنَّ الْكِلَابَ لَتَهْدَا فِي مَرَابِضِهَا   وَالنَّاسُ لَيْسَ بِهَادٍ شَرُّهُمْ أَبَدَا! [الاغتراب في أحكام الكلاب؛ لابن عبد الهادي].

[22] هُوَ: عَبْدُ اللهِ بْنُ هِلَالٍ الْكُوفِيُّ، السَّاحِرُ! الْمَعْرُوفُ بِصَدِيقِ إِبْلِيسَ!! كَانَ فِي زَمَنِ بَنِي أُمَيَّةَ [لسان الميزان؛ لابن حجر – المتوفى سنة ٨٥٢هـ –].

عَلَيَّ وَعَلَى أَوْلَادِي، إِنْ كَانَتْ لِي حَاجَةٌ؛ قَضَاهَا، أَوِ احْتَجْتُ إِلَى قَرْضٍ؛ أَقْرَضَنِي وَأَسْعَفَنِي، وَإِنْ غِبْتُ؛ خَلَفَنِي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي، يَبَرُّهُمْ بِكُلِّ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ، وَإِبْلِيسُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ، يَقُولُ: هَذَا حَسَنٌ! وَهَذَا جَمِيلٌ! فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ وَصْفِهِ؛ قَالَ: فَمَا تُحِبُّ أَنْ أَفْعَلَ بِهِ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُزِيلَ نِعْمَتَهُ وَتُفْقِرَهُ! فَقَدْ أَغَاظَنِي أَمْرُهُ وَكَثْرَةُ مَالِهِ وَبَقَاؤُهُ وَطُولُ سَلَامَتِهِ!![٢٣] فَصَرَخَ إِبْلِيسُ صَرْخَةً لَمْ يُسْمَعْ مِثْلُهَا مِنْهُ قَطُّ!! فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ عَفَارِيتُهُ وَجُنْدُهُ؛ وَقَالُوا: مَا الْخَبَرُ يَا سَيِّدَهُمْ وَمَوْلَاهُمْ!؟ فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – خَلَقَ خَلْقًا هُمْ شَرٌّ مِنِّي!؟!.

وَلَوْ فَتَّشْتَ فِي دَهْرِنَا – هَذَا –؛ لَوَجَدْتَ مِثْلَ صَاحِبِ الْكِتَابِ كَثِيرًا مِمَّنْ نُعَاشِرُهُ[٢٤]: إِذَا لَقِيَكَ رَحَّبَ بِكَ، وَإِذَا غِبْتَ عَنْهُ أَسْرَفَ فِي الْغِيبَةِ! وَتَلَقَّاكَ بِوَجْهِ الْمَحَبَّةِ؛ وَيُضْمِرُ لَكَ الْغِشَّ وَالْمَسَبَّةَ!!.[٢٥]

وَقَدْ عَلِمْتَ مَا جَاءَ فِي الْغِيبَةِ: قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا؛ كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ!!».[٢٦]

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغَيْبَةَ؛ فَإِنَّهَا شَرٌّ مِنَ الزِّنَا! إِنَّ الرَّجُلَ لَيَزْنِي وَيَتُوبُ؛ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ، وَصَاحِبُ الْغِيبَةِ لَا يَغْفِرُهَا اللهُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَهَا صَاحِبُهَا!».[٢٧]

---

[٢٣] قَالَ الشَّاعِرُ:

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ!

[٢٤] هَذَا فِي عَصْرِهِ – رَحِمَهُ اللهُ –، أَمَّا فِي عَصْرِنَا – هَذَا –؛ فَالْأَمْرُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْتِيشٍ!! واللهُ الْمُسْتَعَانُ!.

[٢٥] قَالَ الشَّاعِرُ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَشْكُرُنِي ... حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِبْتُ شَتَمَ!.

[٢٦] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ – وَاللَّفْظُ لَهُ –، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْكُبْرَى، وَالدَّارِمِيُّ فِي سُنَنِهِ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَغَيْرُهُمْ؛ وَصَحَّحَهُ الْإِمَامُ فِي السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ(٨٩٢)، وَصَحِيحِ الْجَامِعِ(٦٤٩٦)، وَغَيْرِهِمَا.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ: الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**» [متفق عليه]. قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: قَوْلُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ إِنَّهُ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ، فَسَبَبُهُ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُ نِفَاقٌ مَحْضٌ وَكَذِبٌ وَخِدَاعٌ وَتَحَيُّلٌ عَلَى اطِّلَاعِهِ عَلَى أَسْرَارِ الطَّائِفَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي كُلَّ طَائِفَةٍ بِمَا يُرْضِيهَا، وَيُظْهِرُ لَهَا أَنَّهُ مِنْهَا فِي خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؛ وَهِيَ مُدَاهَنَةٌ مُحَرَّمَةٌ! اهـ.

[٢٧] حَدِيثٌ ضَعِيفٌ: السِّلْسِلَةُ الضَّعِيفَةُ(١٨٤٦)، وَضَعِيفُ الْجَامِعِ(٢٢٠٤).

قُلْتُ: وَالْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا؛ فَهُوَ صَحِيحُ الْمَعْنَى؛ فَتَأَمَّلْ!.

وَعَنْ بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ[28]: **لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، حَتَّى يَأْمَنَهُ عَدُوُّهُ، وَلَا يَخَافُهُ صَدِيقُهُ.** [29]

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: **ذَهَبَ زَمَنُ الْأُنْسِ وَمَنْ كَانَ يُعَارِضُ! فَاحْتَفِظْ مِنْ صَدِيقِكَ كَمَا تَحْتَفِظُ مِنْ عَدُوِّكَ، وَقَدِّمِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُكَاشِفَهُ سِرَّكَ؛ فَيُجَاهِرَكَ بِهِ فِي وَقْتِ الشَّرِّ!!.** [30]

أَنْشَدَنِي زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ:

احْـــذَرْ مَـــوَدَّةَ مَـــاذِقٍ[31] ... خَلَطَ الْمَرَارَةَ بِالْحَلَاوَة

يُحْصِي الذُّنُوبَ عَلَيْكَ[32] أَيَّا ... مَ الصَّـدَاقَةِ لِلْعَـدَاوَة

---

[28] هُوَ: الْإِمَامُ، الْقُدْوَةُ، الثَّبْتُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ، أَبُو عَلِيٍّ التَّمِيمِيُّ، الْيَرْبُوعِيُّ، الْخُرَاسَانِيُّ، الْمُجَاوِرُ بِحَرَمِ اللهِ.

كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ شَاطِرًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ بَيْنَ أَبِيوَرْدَ وَسَرْخَسَ، وَكَانَ سَبَبُ تَوْبَتِهِ أَنَّهُ عَشِقَ جَارِيَةً، فَبَيْنَا هُوَ يَرْتَقِي الْجُدْرَانَ إِلَيْهَا، إِذْ سَمِعَ تَالِيًا يَتْلُو: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ**﴾. فَلَمَّا سَمِعَهَا؛ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ! قَدْ آنَ! فَرَجَعَ، فَآوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى خَرِبَةٍ، فَإِذَا فِيهَا سَابِلَةٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَرحَلُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَتَّى نُصْبِحَ؛ فَإِنَّ فُضَيْلًا عَلَى الطَّرِيقِ يَقْطَعُ عَلَيْنَا! قَالَ: فَفَكَّرْتُ، وَقُلْتُ: أَنَا أَسْعَى بِاللَّيْلِ فِي الْمَعَاصِي، وَقَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَا هُنَا يَخَافُونِي، وَمَا أَرَى اللهَ سَاقَنِي إِلَيْهِمْ إِلَّا لِأَرْتَدِعَ، اللَّهُمَّ! إِنِّي قَدْ تُبْتُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْتُ تَوْبَتِي مُجَاوَرَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ.

مَاتَ فِي أَوَّلِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ، فِي خِلَافَةِ هَارُونَ، وَكَانَ ثِقَةً، نَبِيلًا، فَاضِلًا، عَابِدًا، وَرِعًا، كَثِيرَ الْحَدِيثِ [سير أعلام النبلاء].

السَّابِلَةُ: الْجَمَاعَةُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي الطُّرُقَاتِ فِي حَوَائِجِهِمْ [المصباح المنير، مادة: (س ب ل)].

[29] وَفِي إِحْدَى الْمَخْطُوطَاتِ – لِكِتَابِنَا هَذَا –، زِيَادَةٌ: ثُمَّ قَالَ الْفُضَيْلُ: هَيْهَاتَ! ذَهَبَ أُولَئِكَ!! وَكَيْفَ يَأْمَنُهُ عَدُوُّهُ، وَهُوَ يَخَافُهُ صَدِيقُهُ؟!!.

[30] قَالَ الشَّاعِرُ:

احْـذَرْ عَدُوَّكَ مَـرَّةً ... وَاحْذَرَ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّة

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيـ ... ـقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالْمَـضَرَّة!

[31] مَذَقَ الْوُدَّ يَمْذُقهُ مَذْقًا: إِذَا لَمْ يُخْلِصْهُ، وَهُوَ مُمَاذِقٌ، أَيْ: غَيْرُ مُخْلِصٍ، يُقَالُ: مَذَقَ الْمَوَدَّةَ: لَمْ يُخْلِصْ فِيهَا، أَيْ: شَابَهَا بِمَا يُكَدِّرُهَا!.

قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

أَلَا إِنَّمَا الْإِخْوَانُ عِنْـدَ الْحَقَائِـقِ ... وَلَا خَيْرَ فِي وُدِّ الصَّدِيقِ الْمُمَاذِقِ

لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ مِنَ الْعَيْشِ كُلِّهِ ... أَقَرَّ لِعَيْـنِي مِـنْ صَدِيـقٍ مُوَافِـقِ

وَكُـلُّ صَدِيـقٍ لَيْسَ فِي اللهِ وُدُّهُ ... فَإِنِّي بِـهِ فِي وُدِّهِ غَيْرُ وَاثِـــقِ

[32] بَلْ "يُحْصِي الْأَنْفَاسَ(!) وَيَعُدُّ الْحُرُوفَ وَالْأَلْفَاظَ وَيَحْفَظُهَا لِيَوْمِ حَاجَتِهِ وَأَوَانِ فُرْصَتِهِ!! فَيُبَكِّتُ بِهَا وَيُعَيِّرُ، وَيُطْنِبُ فِيهَا أَوْ يُقَصِّرُ!" [العزلة؛ للخطابي].

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: أَيُّ النَّاسِ أَحَقُّ أَنْ يُتَّقَى؟ قَالَ: عَدُوٌّ قَوِيٌّ، وَسُلْطَانٌ غَشُومٌ، وَصَدِيقٌ مُخَادِعٌ! وَأَنْشَدَ لِدِعْبِلِ بْنِ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيِّ[٣٣]:

عَدُوٌّ رَاحَ فِي ثَـوْبِ الصَّدِيقِ   شَرِيكٌ فِي الصَّبُوحِ وَفِي الْغَبُوقِ[٣٤]

لَهُ وَجْهَانِ[٣٥]: ظَاهِرُهُ ابْنُ عَـمٍّ   وَبَاطِنُـهُ ابْنُ زَانِيَـةٍ عَتِيـقِ!!

يَسُرُّكَ مُقْبِـلًا وَيَسُـؤُكَ غَيْبًـا   كَـذَاكَ تَكُـونُ أَوْلَادُ الطَّرِيقِ!!

وَلِكُثَيِّرِ عَزَّةَ[٣٦]:

أَنْتَ فِي مَعْشَرٍ إِذَا غِبْتَ عَنْهُمْ   جَعَلُـوا كُـلَّ مَـا يَزِينُـكَ شَيْنَا!

وَإِذَا مَـا رَأَوْكَ قَـالُوا جَمِيعًا: أَنْتَ مِنْ أَكْـرَمِ الرِّجَـالِ عَلَيْـنَا!![٣٧]

أَنْشَدَنِي ابْنُ أَبِي طَاهِرٍ الْكَاتِبُ:

حَـالَ عَمَّا عَهِدْتُ[٣٨] رَيْبُ الزَّمَـانِ[٣٩]   وَاسْتَحَالَتْ مَوَدَّةُ الْإِخْوَانِ

اسْتَوَى النَّاسُ فِي الْخَدِيعَةِ وَالْمَكْـ   ـرِ فَكُـلٌّ لِسَـانُهُ اثْنَـانِ![٤٠]

---

[٣٣] هُوَ: دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيُّ الشَّاعِرُ الْمُفْلِقُ، رَافِضِيٌّ بَغِيضٌ سَبَّابٌ!! هَرَبَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِ، وَعَاشَ نَحْوًا مِنْ تِسْعِينَ سَنَةً، وَلَهُ عَنْ مَالِكٍ مَنَاكِيرُ [لسان الميزان؛ لابن حجر]. **فَائِدَةٌ**: الشَّاعِرُ الْمُفْلِقُ: الْمُجِيدُ، الَّذِي يَأْتِي بِالْعَجَائِبِ فِي شِعْرِهِ.

[٣٤] (**الصَّبُوحُ**): الشُّرْبُ فِي الصَّبَاحِ، وَ(**الْغَبُوقُ**): الشُّرْبُ فِي الْمَسَاءِ.

[٣٥] قَالَ سَعِيدُ بْنُ عُرْوَةَ: لَأَنْ يَكُونَ لِي نِصْفُ وَجْهٍ، وَنِصْفُ لِسَانٍ - عَلَى مَا فِيهِمَا مِنْ قُبْحِ الْمَنْظَرِ وَعَجْزِ الْمَخْبَرِ -؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ ذَا وَجْهَيْنِ، وَذَا لِسَانَيْنِ، وَذَا قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ!! [أدب الدنيا والدين؛ لِلْمَاوَرْدِيِّ - المتوفى سنة ٤٥٠هـ -].

[٣٦] كُثَيِّرُ عَزَّةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْخُزَاعِيُّ، مِنْ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ، وَهُوَ أَبُو صَخْرٍ كُثَيِّرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْخُزَاعِيُّ، الْمَدَنِيُّ.

امْتَدَحَ عَبْدَ الْمَلِكِ وَالْكِبَارَ. وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: كَانَ شِيعِيًّا؛ يَقُولُ بِتَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ! وَكَانَ خَشَبِيًّا؛ يُؤْمِنُ بِالرَّجْعَةِ!! وَكَانَ قَدْ تَتَيَّمَ بِعَزَّةَ، وَشَبَّبَ بِهَا، وَبَعْضُهُمْ يُقَدِّمُهُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَالْكِبَارِ، وَمَاتَ هُوَ وَعِكْرِمَةُ فِي يَوْمٍ، سَنَةَ سَبْعٍ وَمِائَةٍ [سير أعلام النبلاء؛ للذهبي].

[٣٧] وَبَعْدَهُ:   مَا أَرَى لِلْأَنَامِ وُدًّا صَحِيحًا   صَارَ كُلُّ الْوِدَادِ زُورًا وَمَيْنًا!

[٣٨] حَالَ عَمَّا عَهِدْتُهُ عَلَيْهِ: إِذَا تَغَيَّرَ.

[٣٩] (**رَيْبُ الزَّمَانِ**): مَا يُقْلِقُ النُّفُوسَ وَيَشْخَصُ بِالْقُلُوبِ مِنْ نَوَائِبِهِ.

[٤٠] وَبَعْدَهُ:   قُلْ لِمَنْ يَبْتَغِي السَّلَامَةَ وَالصِّحَّةَ ... عِشْ وَاحِدًا بِلَا إِخْوَانِ!

فَلَعَمْرِي! لَئِنْ بَلَوْتَ أَصَـحَّ النَّا ... سِ وُدًّا وَجَدْتَ ذَا أَلْوَانِ!

وَاعْلَمْ – أَعَزَّكَ اللهُ – أَنَّ (الْكَلْبَ) لِمَنْ يَقْتَنِيهِ؛ أَشْفَقُ مِنَ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ! وَالْأَخِ الشَّقِيقِ عَلَى أَخِيهِ! وَذَلِكَ: أَنَّهُ يَحْرُسُ رَبَّهُ، وَيَحْمِي حَرِيمَهُ شَاهِدًا وَغَائِبًا وَنَائِمًا وَيَقْظَانًا، لَا يُقَصِّرُ عَنْ ذَلِكَ وَإِنْ جَفَوْهُ، وَلَا يَخْذُلُهُمْ وَإِنْ خَذَلُوهُ!.

وَرُوِيَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: أَوْصِنِي، قَالَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا وَلَا تُنَازِعْ فِيهَا أَهْلَهَا، وَانْصَحْ لِلَّهِ – تَعَالَى – كَنُصْحِ الْكَلْبِ لِأَهْلِهِ؛ فَإِنَّهُمْ يُجِيعُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ، وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يَحُوطَهُمْ نُصْحًا!.[٤١]

قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ[٤٢]: إِذَا بَصْبَصَ الْكَلْبُ[٤٣] لَكَ فَثِقْ بِوُدٍّ مِنْهُ وَلَا تَثِقْ بِبَصَابِصِ النَّاسِ، فَرُبَّ مُبَصْبِصٍ خَوَّان!!.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: خَيْرُ خَصْلَةٍ فِي الْكَلْبِ: أَنَّهُ لَا يُنَافِقُ فِي مَحَبَّتِهِ.

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي طَاهِرٍ، حَدَّثَنِي حَمَّادُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيُّ، قَالَ: قَالَ أَبِي: أَتَيْتُ يَوْمًا الْفَضْل بْن يَحْيَى فَصَادَفْتُهُ بِشُرْبٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ كَلْبٌ! فَقُلْتُ لَهُ: أَتُنَادِمُ[٤٤] كَلْبًا؟! قَالَ: نَعَمْ! يَمْنَعُنِي أَذَاهُ وَيَكُفُّ عَنِّي أَذَى سِوَاهُ، وَيَشْكُرُ قَلِيلِي، وَيَحْرُسُ مَبِيتِي وَمَقِيلِي.[٤٥]

---

[٤١] حُقَّ لِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ أَنْ تُسَمَّى بِـ(الْوَصِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ)!.

[٤٢] الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حُصَيْنٍ التَّمِيمِيُّ، الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ، الْعَالِمُ النَّبِيلُ، أَبُو بَحْرٍ التَّمِيمِيُّ، أَحَدُ مَنْ يُضْرَبُ بِحِلْمِهِ وَسُؤْدُدِهِ الْمَثَلُ.

اسْمُهُ: ضَحَّاكٌ، وَقِيلَ: صَخْرٌ، وَشُهِرَ بِالْأَحْنَفِ؛ لِحَنَفِ رِجْلَيْهِ – وَهُوَ الْعَوَجُ وَالْمَيْلُ –.

أَسْلَمَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَوَفَدَ عَلَى عُمَرَ، قَالَ الْفَسَوِيُّ: مَاتَ الْأَحْنَفُ سَنَةَ سَبْعٍ وَسِتِّينَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: تُوُفِّيَ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ [سير أعلام النبلاء؛ للذهبي].

[٤٣] (**بَصْبَصَ الْكَلْبُ**): حَرَّكَ ذَنَبَهُ، وإِنَّمَا يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْ طَمَعٍ أَوْ خَوْفٍ [تاج العروس؛ لمرتضى الزَّبيدي – المتوفى سنة ١٢٠٥هـ –، مادة: (ب ص ص)].

[٤٤] نَادَمَهُ مُنَادَمَةً ونِدَامًا: رَافَقَهُ وَشَارَبَهُ وَسَامَرَهُ [المعجم الوسيط].

[٤٥] حَكَى مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الْعَتَّابِي، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا عَلَى حَصِيرٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ شَرَابٌ فِي إِنَاءٍ، وَكَلْبٌ رَابِضٌ بِحِيَالِهِ؛ يَشْرَبُ كَأْسًا، وَيُولِغُهُ أُخْرَى! فَقُلْتُ لَهُ: مَا الَّذِي أَرَدْتَ بِهَذَا؟! فَقَالَ: اسْمَعْ! إِنَّهُ يَكُفُّ عَنِّي أَذَاهُ، وَيَكْفِينِي أَذَى مَنْ سِوَاهُ، وَيَشْكُرُ قَلِيلِي، وَيَحْفَظُ بَيْتِي وَمَقِيلِي، فَهُوَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانِ خَلِيلِي!.

قَالَ ابْنُ حَرْبٍ: فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ – وَاللهِ – ذَلِكَ الْكَلْبَ؛ لِأَحُوزَ هَذَا النَّعْتَ مِنْهُ!![انظر: الاغتراب في أحكام الكلاب؛ لابن عبد الهادي، وجمهرة الأمثال؛ لأبي هلال العسكري – المتوفى سنة ٣٩٥هـ –، تحت المثل: (أَشْكَرُ مِنْ كَلْبٍ!)، وهو برقم: (١٠٥٨)].

أَنْشَدَنِي الْحَسَنُ بنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ لِرَجُلٍ يَذُمُّ صَدِيقًا لَهُ وَيَمْدَحُ كَلْبًا:

تَخَيَّرْتُ مِنَ الْأَخْلَا   قِ مَا يُنْفَى عَنِ الْكَلْبِ
فَإِنَّ الْكَلْبَ مَجْبُولٌ   عَـلَى النُّصْرَةِ وَالــذَّبِّ
وَفِيٌّ يَحْفَظُ الْعَهْـدَا   وَيَحْمِي عَرْصَـةَ الـدَّرْبِ
وَيُعْطِيكَ عَلَى اللِّينِ   وَلَا يُعْطِي عَلَي الضَّرْبِ
وَيَشْفِيكَ مِنَ الْغَيْظِ   وَيُنْجِيكَ مِـنَ الْكَـرْبِ
فَلَوْ أَشْبَهْتَهُ لَمْ تَكُ   كَانُـونًا[٤٦] عَلَى الْقَلْبِ!

وَذَكَرَ بَعْضُ الرُّوَاةِ، قَالَ: كَانَ لِلرَّبِيعِ بْنِ بَدْرٍ كَلْبٌ قَدْ رَبَّاهُ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّبِيعُ وَدُفِنَ؛ جَعَلَ الْكَلْبُ يَضْرِبُ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى مَاتَ!!.

وَكَانَ لِلْعَامِرِ بْنِ عَنْتَرَةَ كِلَابُ صَيْدٍ وَمَاشِيَةٍ، وَكَانَ يُحْسِنُ صُحْبَتَهَا، فَلَمَّا مَاتَ عَامِرٌ؛ لَزِمَتِ الْكِلَابُ قَبْرَهُ حَتَّى مَاتَتْ عِنْدَهُ!! وَتَفَرَّقَ عَنْهُ الْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ!.

وَرُوِيَ لَنَا عَنْ شَرِيكٍ، قَالَ: كَانَ لِلْأَعْمَشِ كَلْبٌ يَتْبَعُهُ فِي الطَّرِيقِ إِذَا مَشَى حَتَّى يَرْجِعَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ: رَأَيْتُ صِبْيَانًا يَضْرِبُونَهُ فَفَرَّقْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَعَرَفَ ذَلِكَ لِي فَشَكَرَهُ! فَإِذَا رَآنِي يُبَصْبِصُ لِي وَيَتْبَعُنِي!.

وَلَوْ عَاشَ – أَيَّدَكَ اللهُ – الْأَعْمَشُ إِلَى عَصْرِنَا وَوَقْتِنَا هَذَا، حَتَّى يَرَى أَهْلَ زَمَانِنَا هَذَا؛ لَازْدَادَ فِي كَلْبِهِ رَغْبَةً وَمَحَبَّةً!!.[٤٧]

---

[٤٦] (الْكَانُونُ): الثَّقِيلُ مِنَ النَّاسِ، وَرَجُلٌ كَانُون: يَسْتَثْقِلُهُ أَصْحَابُهُ عِنْدَ الْحَدِيثِ [لسان العرب؛ لابن منظور – المتوفى سنة ٧١١هـ –، مادة: (كنن)، ومعجم ديوان الأدب؛ للفارابي – المتوفى سنة ٣٥٠هـ –].

[٤٧] عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: رَحِمَ اللهُ لَبِيدًا؛ حَيْثُ قَالَ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ   وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ
يَتَأَكَّلُونَ مَشِيحَةً وَخِيَانَةً   وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ

ثُمَّ تَقُولُ: كَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟! قَالَ عُرْوَةُ: رَحِمَ اللهُ عَائِشَةَ! فَكَيْفَ لَوْ رَأَتْ زَمَانَنَا هَذَا؟!![الأدب لابن أبي شيبة، والأفراد للدارقطني، والزهد لأبي داود، وتهذيب الآثار للطبري، وعبد الرزاق في مصنفه، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، والمجالسة وجواهر العلم].

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: رَحِمَ اللهُ سَلَفَنَا وَعَفَا عَنَّا وَعَنْهُمْ! فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكُوا زَمَانَنَا هَذَا؟!!!.

وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ، أَنَّهُ قَالَ: النَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَانِ خَنَازِيرُ! فَإِذَا رَأَيْتُمْ كَلْبًا فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ أُنَاسِ هَذَا الزَّمَانِ!!.[٤٨]

قَالَ الشَّاعِرُ:

اشْدُدْ يَدَيْـكَ بِكَلْبٍ إِنْ ظَفِرْتَ بِهِ ... فَأَكْثَرُ النَّاسِ قَدْ صَارُوا خَنَازِيرَا!!

وَأَنْشَدَنِي أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَزْدِيُّ:

لَكَلْبُ النَّاسِ[٤٩] إِنْ فَكَّـرْتَ فِيـــهِ ... أَضَرُّ عَلَيْكَ مِنْ كَلَبِ[٥٠] الْكِلَابِ

لِأَنَّ الْكَلْـبَ تَـخْسَـــؤُهُ فَيَخْسَـا ... وَكَلْـبُ النَّـاسِ يَرْبِـــضُ لِلْعِتَـابِ!

وَأَنَّ الْكَلْـبَ لَا يُــــؤْذِي جَلِيسـا ... وَأَنْتَ الدَّهْـرُ مِنْ ذَا فِي عَـذَابِ

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ، قَالَ: حَضَرْتُ بَعْضَ الْأَعْرَابِ الْوَفَاةُ، وَكَلْبٌ فِي جَانِبِ خَيْمَتِهِ، فَقَالَ لِأَكْبَرِ وَلَدِهِ:

أُوصِيـكَ خَيْـــرًا بِـــهِ فَـإِنَّ لَــهُ ... صَنَائِعَ لَا أَزَالُ أَحْمَدُهَا

يَدُلُّ ضَيْفِي عَلَيَّ فِي غَسَقِ اللَّيْـ ... ـلِ إِذَا النَّارُ نَامَ مُوقِدُهَا

---

[٤٨] عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى: قَالَ: سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، يُقَالُ لَهُ: (زَمَانُ الذِّئَابِ!) فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَلْبًا أَكَلُوهُ!!.
قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ(الْخَطَّابِيُّ): قَالَ قُتَيْبَةُ: هُوَ هَذَا الزَّمَانُ! [العزلة؛ للخطابي].
قُلْت: فَإِذَا كَانَ هَذَا كَلَامُ مَنْ كَانَ فِي أَوَائِلِ الْإِسْلَامِ أَوْ فِي أَوْسَاطِهِ، وَقَدْ مَضَى بَعْدَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ عَامٍ! فَمَا بَالُكَ بِزَمَانٍ وَفَاؤُهُ غَدْرٌ، وَخَيْرُهُ شَرٌّ، وَنَفْعُهُ ضُرٌّ، وَصِدْقُهُ كَذِبٌ، وَحَسَنَتُهُ ذَنْبٌ، وَصَدِيقُهُ خَائِنٌ، وَصَادِقُهُ مَائِنٌ، وَخَلِيلُهُ غَادِرٌ، وَنَاسِكُهُ فَاجِرٌ، وَعَالِمُهُ جَاهِلٌ، وَعَاذِرُهُ عَاذِلٌ؟! [غذاء الألباب؛ للسَّفَّاريني – المتوفى سنة ١١٨٨هـ –، بتصرف].
قَالَ جَعْفَرُ بْنُ حُمَيْدٍ الْأَكَّافُ: صَحِبْتُ النَّاسَ خَمْسِينَ سَنَةً؛ فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا مِنْهُمْ سَتَرَ لِي عَوْرَةً، وَلَا وَصَلَنِي إِذَا قَطَعْتُهُ، وَلَا أَمِنْتُهُ إِذَا غَضِبَ! فَالِاشْتِغَالُ بِهَؤُلَاءِ حُمْقٌ كَثِيرٌ [روضة العقلاء؛ لابن حبان – المتوفى سنة ٣٥٤هـ –].

[٤٩] (**كِلَابُ النَّاسِ**): هُمُ الْأَنْذَالُ وَالْخَوَنَةُ وَالسُّفَهَاءُ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ!. وَفِي أَمَالِي ابْنِ دُرَيْدٍ – الْمُتَوَفَّى سَنَة٣٢١هـ –:

كِلَابُ النَّاسِ إِنْ فَكَّـرْتَ فِيهَا ... أَضَرُّ عَلَيْكَ مِنْ كَلَبِ الْكِلَابِ

لِأَنَّ الْكَلْبَ لَا يُؤْذِي صَدِيقًا ... وَإِنَّ صَدِيـــقَ هَذَا فِي عَذَابِ!

وَيَأْتِي حِيـنَ يَأْتِي فِـي ثِيَــابٍ ... وَقَدْ حُزِمَتْ عَلَى رَجُلٍ مُصَابِ!!

فَأَخْـزَى اللهُ أَثْوَابًا عَلَيْـــــهِ! ... وَأَخْـزَى اللهُ مَا تَحْتَ الثِّيَـابِ!!

[٥٠] (**الْكَلَبُ**): دَاءٌ مُعْدٍ يُشْبِهُ الْجُنُونَ يُصِيبُ الْكِلَابَ، وَبِمُجَرَّدِ مَا تَعَضُّ النَّاسَ، تَنْقُلُهُ إِلَيْهِمْ.

أَخْبَرَنِي أَبُو الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ[٥١]، قَالَ: أَخْبَرَنِي بَعْضُ الْأُدَبَاءِ، قَالَ: كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هَرْمَةَ[٥٢] كِلَابٌ إِذَا أَبْصَرَتِ الْأَضْيَافَ بَشَّتْ لَهُمْ وَلَمْ تَنْبَحْ! وَبَصْبَصَتْ بِأَذْنَابِهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَقَالَ يَمْدَحُهَا:

وَيَدُلُّ ضَيْفِي فِي الظَّلَامِ إِذَا سَرَى ... إِيقَادُ نَارِي أَوْ نُبَاحُ كِلَابِ
حَتَّى إِذَا وَاجَهْنَهُ وَعَرَفْنَهُ ... حَيَّيْنَهُ بِبَصَابِصِ الْأَذْنَابِ
وَجَعَلْنَ مِمَّا قَدْ عَرَفْنَ يُفدنَهُ ... وَيَكِدْنَ أَنْ يَنْطُقْنَ بِالتِّرْحَابِ!

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى قَدْرِ الْكَلْبِ: كَثْرَةُ مَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْمَدْحِ وَالذَّمِّ، حَتَّى قَدْ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي الْحَدِيثِ، وَفِي الْأَشْعَارِ وَالْأَمْثَالِ، حَتَّى اسْتُعْمِلَ عَلَى طَرِيقِ الْفَأْلِ وَالطِّيَرَةِ وَالِاشْتِقَاقَاتِ لِلْأَسْمَاءِ، فَمِنْ ذَلِكَ: أَكْلُبُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَكِلَابُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَمُكْلِبُ بْنُ رَبِيعَةَ ابْنِ نِزَارٍ، وَكُلَيْبُ بْنُ يَرْبُوعٍ، وَمُكَالِبُ بْنُ رَبِيعَةَ ابْنِ نِزَارٍ، وَكِلَابُ بْنُ يَرْبُوعٍ ؛ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ!.

وَلِلْكَلْبِ أَيْضًا مِنَ الْفَضَائِلِ: إِثْبَاتُهُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَنَظَرُهُ إِلَيْهِ فِي عَيْنِهِ وَفِي وَجْهِهِ، وَحُبُّهُ لَهُ وَدُنُوُّهُ مِنْهُ؛ حَتَّى رُبَّمَا لَاعَبَهُ وَلَاعَبَ صِبْيَانَهُ بِالْعَضِّ الَّذِي لَا يُؤْلِمُ وَلَا يُؤَثِّرُ! وَلَهُ تِلْكَ الْأَنْيَابُ الَّتِي لَوْ أَنْشَبَهَا فِي الشَّجَرِ؛ لَأَثَّرَتْ!!.

قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

أَيُّهَا الشَّانِئُ الْكِلَابَ أَصِخْ لِي ... مِنْكَ سَمْعًا وَلَا تَكُونَنَّ حَبْسا
إِنَّ فِي الْكَلْبِ فَاعْلَمَنَّ خِصَالًا ... مِنْ شَرِيفِ الْفِعَالِ يُعْدَدْنَ خَمْسا
حِفْظُ مَنْ كَانَ مُحْسِنًا وَوَفَاءٌ ... لِلَّذِي يَتَّخِذُهُ حَرْبًا وَحَرَسا
وَاتِّبَاعٌ لِرَحْلِهِ وَإِذَا مَا ... صَارَ نُطْقُ الشُّجَاعِ لِلْخَوْفِ هَمْسا

---

[٥١] أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ الْكَاتِبُ، أَبُو الْفَضْلِ، كَانَ أَحَدُ الْبُلَغَاءِ الشُّعَرَاءِ الرُّوَاةِ، وَمِنْ أَهْلِ الْفَهْمِ الْمَذْكُورِينَ بِالْعِلْمِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ [تاريخ بغداد؛ للخطيب البغدادي – المتوفى سنة ٤٦٣هـ –].

[٥٢] هُوَ: شَاعِرُ زَمَانِهِ، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ عَامِرٍ الْفِهْرِيُّ، الْمَدَنِيُّ، أَحَدُ الْبُلَغَاءِ، مِنْ شُعَرَاءِ الدَّوْلَتَيْنِ، وَكَانَ مُنْقَطِعًا إِلَى الْعَلَوِيَّةِ! قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: هُوَ مُقَدَّمٌ فِي شُعَرَاءِ الْمُحْدَثِينَ [سير أعلام النبلاء].

وَهُـوَ عَـوْنٌ لِنَـابِحٍ مِنْ بَعِيـدٍ مُسْتَجِيـرًا بِقُـرْبِـهِ حِـينَ أَمْسَـا

وَقَالَ آخَرُ:

إِنَّ قَـوْمًا رَأَوْكَ شِبْـهًا لِكَلْبٍ لَا رَأَوا لِلظَّـلَامِ صُبْحًـا مُضِيّـا
أَنْتَ لَا تَحْفَظُ الذِّمَـامَ لِخَلْقٍ وَهُـوَ يَرْعَـى الذِّمَامَ رَعْيًا وَفِيّا
يَشْكُرُ النَّزْرَ مِنْ كَرِيـمِ فِعَالٍ آخِـرَ الدَّهْـرِ لَا تَـرَاهُ نَسِيّـا
وَتُنَـادِيـهِ مِـنْ مَـكَـانٍ بَعْيـدٍ فَيُـوَافِيـكَ طَـائِعًـا مُسْتَحِيّـا
إِنْ سُـؤْلِي وَبُغْيَتِـي وَمُنَـايَ: أَنْ أَرَاكَ الْغَـدَاةَ كَلْبًا سَـوِيّا!

قَدْ أَنْشَدَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ:

يُعَـرِّجُ[53] عَنْـهُ جَارُهُ وَشَقِيقُـهُ وَيَرْغَبُ فِيـهِ كَلْبُـهُ وَهُوَ ضَارِبُـهُ[54]

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: قِيلَ هَذَا الشِّعْرُ فِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، خَرَجَ إِلَى الْجَبَّانَةِ[55] يَنْتَظِرُ رِكَابَهُ[56]، فَأَتْبَعَهُ كَلْبٌ لَهُ؛ فَطَرَدَهُ وَضَرَبَهُ! وَكَرِهَ أَنْ يَتْبَعَهُ وَرَمَاهُ بِحَجَرٍ فَأَدْمَاهُ! فَأَبَى الْكَلْبُ إِلَّا أَنْ يَتْبَعَهُ!! فَلَمَّا صَارَ إِلَى الْمَوْضِعِ؛ وَثَبَ بِهِ قَوْمٌ كَانَتْ لَهُمْ عِنْدَهُ طَائِلَةٌ[57]، وَكَانَ مَعَهُ جَارٌ لَهُ وَأَخٌ، فَهَرَبَا عَنْهُ وَتَرَكَاهُ وَأَسْلَمَاهُ!! فَجُرِحَ جِرَاحَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَرُمِيَ بِهِ فِي بِئْرٍ وَحَثَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ حَتَّى وَارَوْهُ، وَلَمْ يَشُكُّوا فِي مَوْتِهِ! وَالْكَلْبُ مَعَ هَذَا يَهِرُّ[58] عَلَيْهِمْ وَيَرْجُمُونَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا؛ أَتَى الْكَلْبُ إِلَى رَأْسِ الْبِئْرِ فَلَمْ يَزَلْ يَعْوِي وَيَبْحَثُ فِي التُّرَابِ بِمَخَالِبِهِ، حَتَّى ظَهَرَ

---

[53] (**عَرَّجْتُ عَنْهُ**): عَدَلْتُ عَنْهُ وَتَرَكْتُهُ [المصباح المنير، مادة: (ع ر ج)].

[54] وَفِي كِتَابِ (الْحَيَوَانِ) لِلْجَاحِظِ – الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٥٢هـ –:

يُعَرِّدُ عَنْهُ جَارُهُ وَشَقِيقُهُ وَيَنْبِشُ عَنْهُ كَلْبُهُ وَهُوَ ضَارِبُهُ.

(**التَّعْرِيدُ**): الْفِرَارُ، يُقَالُ: عَرَّدَ الرَّجُلُ تَعْرِيدًا: فَرَّ، وَهَرَبَ [تهذيب اللغة؛ للأزهري – المتوفى سنة ٣٧٠هـ –، ولسان العرب، مادة: (عرد)].

[55] (**الْجَبَّانَةُ**): الصَّحْرَاءُ، وَتُسَمَّى بِهَا الْمَقَابِرُ؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ فِي الصَّحْرَاءِ، تَسْمِيَةً لِلشَّيْءِ بِمَوْضِعِهِ [النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جبن)].

[56] (**الرِّكَابُ**) الْإِبِلُ الَّتِي يُسَارُ عَلَيْهَا [مختار الصحاح، مادة: (ر ك ب)].

[57] يُقَالُ: بَيْنَهُمْ طَائِلَةٌ، أَيْ: عَدَاوَةٌ، وَثَأْرٌ.

[58] (**هَرِيرُ الْكَلْبِ**): صَوْتُهُ؛ وَهُوَ دُونَ النُّبَاحِ [المصباح المنير، مادة: (هـ ر ر)].

رَأْسُ صَاحِبِهِ وَفِيهِ نَفَسٌ يَتَرَدَّدُ، وَقَدْ كَانَ أَشْرَفَ عَلَى التَّلَفِ، وَلَمْ يَبْقَى فِيهِ إِلَّا حُشَاشَةُ[٥٩] نَفَسِهِ! فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ؛ إِذْ مَرَّ أُنَاسٌ فَأَنْكَرُوا مَكَانَ الْكَلْبِ، وَرَأَوْهُ كَأَنَّهُ يَحْفِرُ قَبْرًا![٦٠] فَجَاءُوا؛ فَإِذَا هُمْ بِالرَّجُلِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ!! فَاسْتَخْرَجُوهُ حَيًّا وَحَمَلُوهُ إِلَى أَهْلِهِ!.

فَزَعَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ، يُدْعَى: (بِئْرَ الْكَلْبِ)!.

وَهَذَا الْأَمْرُ يَدُلُّ عَلَى: وَفَاءٍ طَبْعِي، وَإِلْفٍ غَرِيزِي، وَمُحَامَاةٍ شَدِيدَةٍ، وَعَلَى مَعْرِفَةٍ وَصَبْرٍ، وَكَرَمٍ، وَغَنَاءٍ عَجِيبٍ، وَمَنْفَعَةٍ تَفُوقُ الْمَنَافِعَ!.[٦١]

---

[٥٩] (**الْحُشَاشَةُ**): بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْمَرِيضِ [المصباح المنير، مادة: (ح ش ش)].

[٦٠] وَفِي كِتَابِ الِاغْتِرَابِ: عَنْ أَبِي عُثْمَانَ الْمَدِينِيِّ: أَنَّهُ كَانَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يَلْعَبُ بِالْكِلَابِ (فَخَرَجَ) يَوْمًا فِي حَاجَةٍ لَهُ، وَتَبِعَهُ كَلْبٌ كَانَ يَخُصُّهُ، فَرَدَّهُ، فَلَمْ يَرْجِعْ! فَتَرَكَهُ وَمَشَى حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ، فَصَادَفُوهُ بِغَيْرِ عُدَّةٍ! فَقَبَضُوا عَلَيْهِ وَالْكَلْبُ يَرَاهُمْ، فَأَدْخَلُوهُ الدَّارَ فَدَخَلَ الْكَلْبُ مَعَهُمْ، فَقَتَلُوا الرَّجُلَ! فَأَلْقَوْهُ فِي بِئْرٍ! وَطَمُّوا رَأْسَ الْبِئْرِ!! وَضَرَبُوا الْكَلْبَ وَأَخْرَجُوهُ وَطَرَدُوهُ؛ فَخَرَجَ يَسْعَى إِلَى بَيْتِ صَاحِبِهِ وَعَوَى فَلَمْ يَعْبَئُوا بِهِ!.

وَافْتَقَدَتْ أُمُّ الرَّجُلِ ابْنَهَا، فَعَلِمَتْ أَنَّهُ قَدْ تَلِفَ! فَأَقَامَتْ عَلَيْهِ الْمَآتِمَ، وَطَرَدَتِ الْكِلَابَ عَنْ بَابِهَا، فَلَزِمَ ذَلِكَ الْكَلْبُ الْبَابَ، وَلَمْ يَنْطَرِدْ! فَاجْتَازَ يَوْمًا بَعْضُ قَتَلَةِ صَاحِبِهِ بِالْبَابِ، وَالْكَلْبُ رَابِضٌ! فَلَمَّا رَآهُ؛ وَثَبَ عَلَيْهِ وَخَمَشَ سَاقَيْهِ وَنَهَشَهُ وَتَعَلَّقَ بِهِ!! وَاجْتَهَدَ الْمُجْتَازُونَ فِي تَخْلِيصِهِ مِنْهُ فَلَمْ يُمْكِنْهُمْ! وَارْتَفَعَتْ لِلنَّاسِ ضَجَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَجَاءَ حَارِسُ الدَّرْبِ؛ فَقَالَ: لَمْ يَتَعَلَّقْ هَذَا الْكَلْبُ بِالرَّجُلِ إِلَّا وَلَهُ مَعَهُ قِصَّةٌ! وَلَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ!!

وَسَمِعَتْ أُمُّ الْقَتِيلِ الْكَلَامَ فَخَرَجَتْ، فَحِينَ رَأَتِ الْكَلْبَ مُتَعَلِّقًا بِالرَّجُلِ؛ تَأَمَّلَتِ الرَّجُلَ، فَذَكَرَتْ أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ أَعْدَاءِ ابْنِهَا، وَمِمَّنْ يَتَطَلَّبُهُ! فَوَقَعَ فِي نَفْسِهَا أَنَّهُ قَاتِلُ ابْنِهَا؛ فَتَعَلَّقَتْ بِهِ!! فَرَفَعُوهُمَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّاضِي بِاللهِ، وَادَّعَتْ عَلَيْهِ الْقَتْلَ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَهُ فَلَمْ يُقِرَّ، فَلَزِمَ الْكَلْبُ بَابَ الْحَبْسِ!.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ أَمَرَ الرَّاضِي بِإِطْلَاقِهِ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَابِ الْحَبْسِ؛ تَعَلَّقَ بِهِ الْكَلْبُ كَمَا فَعَلَ أَوَّلًا، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ! وَجَهِدُوا عَلَى خَلَاصِهِ مِنْهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ جُهْدٍ جَهِيدٍ!! وَأُخْبِرَ الرَّاضِي بِذَلِكَ؛ فَأَمَرَ بَعْضَ غِلْمَانِهِ أَنْ يُطْلِقَ الرَّجُلَ وَيُرْسِلَ الْكَلْبَ خَلْفَهُ وَيَتْبَعَهُ، فَإِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ دَارَهُ؛ بَادَرَهُ وَدَخَلَ وَأَدْخَلَ الْكَلْبَ مَعَهُ، وَمَهْمَا رَأَى الْكَلْبَ يَعْمَلُ يُعْلِمْهُ بِذَلِكَ!.

فَفَعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ الرَّجُلُ دَارَهُ بَادَرَهُ غُلَامُ الْخَلِيفَةِ وَدَخَلَ وَأَدْخَلَ الْكَلْبَ مَعَهُ، فَفَتَّشَ الْبَيْتَ فَلَمْ يَرَ أَثَرًا وَلَا خَبَرًا! وَأَقْبَلَ الْكَلْبُ يَنْبَحُ وَيَبْحَثُ عَنْ مَوْضِعِ الْبِئْرِ الَّتِي طُرِحَ فِيهَا الْقَتِيلُ، فَعَجِبَ الْغُلَامُ مِنْ ذَلِكَ! وَأَخْبَرَ الرَّاضِي بِأَمْرِ الْكَلْبِ، فَأَمَرَ بِنَبْشِ ذَلِكَ الْمَكَانِ؛ فَنُبِشَ فَوُجِدَ الْبِئْرُ وَالرَّجُلُ قَتِيلًا! فَأُخِذَ صَاحِبُ الدَّارِ إِلَى بَيْنَ يَدَي الرَّاضِي، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ فَأَقَرَّ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى جَمَاعَةٍ بِالْقَتْلِ؛ فَقُتِلَ! وَطُلِبَ الْبَاقُونَ فَهَرَبُوا!!.

[٦١] ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا تَصَنُّعٍ! [انْظُرِ: الْحَيَوَانُ؛ لِلْجَاحِظِ].

وَحَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ خَلَّادٍ، قَالَ: قَدِمَ رَجُلٌ عَلَى بَعْضِ السَّلَاطِينِ وَكَانَ مَعَهُ حَاكِمُ أَرْمِينِيَّةَ مُنْصَرِفًا إِلَى مَنْزِلِهِ، فَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ بِمَقْبَرَةٍ، فَإِذَا قَبْرٌ عَلَيْهِ قُبَّةٌ مَبْنِيَّةٌ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: (هَذَا قَبْرُ الْكَلْبِ! فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ خَبَرَهُ؛ فَلْيَمْضِ إِلَى قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ فِيهَا مَنْ يُخْبِرُهُ)، فَسَأَلَ الرَّجُلُ عَنِ الْقَرْيَةِ، فَدَلُّوهُ عَلَيْهَا، فَقَصَدَهَا، وَسَأَلَ أَهْلَهَا، فَدَلُّوهُ عَلَى الشَّيْخِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَأَحْضَرَهُ، وَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاوَزَ الْمِائَةَ سَنَةٍ! فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: نَعَمْ؛ كَانَ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مَلِكٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِالنُّزْهَةِ وَالصَّيْدِ وَالسَّفَرِ، وَكَانَ لَهُ كَلْبٌ قَدْ رَبَّاهُ، وَسَمَّاهُ: ...!، وَكَانَ لَا يُفَارِقُهُ حَيْثُ كَانَ، فَإِذَا كَانَ وَقْتُ غَدَائِهِ وَعَشَائِهِ؛ أَطْعَمَهُ مِمَّا يَأْكُلُ، فَخَرَجَ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ مُتَنَزَّهَاتِهِ، وَقَالَ لِبَعْضِ غِلْمَانِهِ: قُلْ لِلطَّبَّاخِ يُصْلِحُ لَنَا ثَرِيدَةَ لَبَنٍ، فَقَدِ اشْتَهَيْتُهَا! فَأَصْلِحُوهَا، وَمَضَى إِلَى مُتَنَزَّهَاتِهِ.

فَتَوَجَّهَ الطَّبَّاخُ، فَجَاءَ بِلَبَنٍ، وَصَنَعَ لَهُ ثَرِيدَةً عَظِيمَةً، وَنَسِيَ أَنْ يُغَطِّيَهَا بِشَيْءٍ! وَاشْتَغَلَ بِطَبْخِ شَيْءٍ آخَرَ، فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ شُقُوقِ الْحِيطَانِ أَفْعَى! فَكَرَعَ مِنْ ذَلِكَ اللَّبَنِ، وَمَجَّ فِي الثَّرِيدَةِ مِنْ سُمِّهِ!! وَالْكَلْبُ رَابِضٌ يَرَى ذَلِكَ كُلَّهُ! وَلَوْ كَانَ فِي الْأَفْعَى حِيلَةٌ؛ لَمَنَعَهَا، وَلَكِنْ لَا حِيلَةَ لِلْكَلْبِ فِي الْأَفْعَى وَالْحَيَّةِ، وَكَانَ عِنْدَ الْمَلِكِ جَارِيَةٌ خَرْسَاءُ زَمِنَةٌ قَدْ رَأَتْ مَا صَنَعَ الْأَفْعَى، وَوَافَى الْمَلِكُ مِنَ الصَّيْدِ فِي آخِرِ النَّهَارِ، فَقَالَ: يَا غِلْمَانُ! أَوَّلُ مَا تُقَدِّمُونَ إِلَيَّ الثَّرِيدَةَ! فَلَمَّا قَدَّمُوهَا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ أَوْمَأَتِ الْخَرْسَاءُ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَفْهَمُوا مَا تَقُول! وَنَبَحَ الْكَلْبُ وَصَاحَ فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ! وَأَلَحَّ فِي الصِّيَاحِ لِيُعْلِمَهُمْ مُرَادَهُ فِيهِ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِ بِمَا كَانَ يَرْمِي إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَلَمْ يَقْرَبْهُ، وَلَجَّ فِي الصِّيَاحِ! فَقَالَ لِغِلْمَانِهِ: نَحُّوهُ عَنَّا؛ فَإِنَّ لَهُ قِصَّةً! وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى اللَّبَنِ! فَلَمَّا رَآهُ الْكَلْبُ يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ؛ وَثَبَ إِلَى وَسَطِ الْمَائِدَةِ وَأَدْخَلَ فَمَهُ فِي اللَّبَنِ وَكَرَعَ مِنْهُ؛ فَسَقَطَ مَيِّتًا وَتَنَاثَرَ لَحْمُهُ!! وَبَقِيَ الْمَلِكُ مُتَعَجِّبًا مِنْهُ وَمِنْ فِعْلِهِ، فَأَوْمَأَتِ الْخَرْسَاءُ إِلَيْهِمْ؛ فَعَرَفُوا مُرَادَهَا بِمَا صَنَعَ الْكَلْبُ، فَقَالَ الْمَلِكُ لِنُدَمَائِهِ وَحَاشِيَتِهِ: إِنَّ كَلْبًا قَدْ فَدَانِي بِنَفْسِهِ؛ لَحَقِيقٌ بِالْمُكَافَأَةِ، وَمَا يَحْمِلُهُ وَيَدْفِنُهُ غَيْرِي! وَدَفَنَهُ بَيْنَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ(!)وَبَنَى عَلَيْهِ قُبَّةً، وَكَتَبَ عَلَيْهَا مَا قَرَأْتَ، وَهَذَا مَا كَانَ مِنْ خَبَرِهِ!!.

ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ النَّحْوِيِّ، وَأَبِي اليَقْظَانَ سُحَيْمِ بْنِ حَفْصٍ، وَأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَدَايِنِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَفْصِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ مُحَارِبٍ، وَقَدْ حَدَّثَنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الدُّنْيَا بِإِسْنَادٍ ذَكَرَهُ – وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ –: أَنَّ الطَّاعُونَ الْجَارِفَ أَتَى عَلَى أَهْلِ دَارٍ، فَلَمْ يَشُكَّ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهَا صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ! وَكَانَ قَدْ بَقِيَ فِي الدَّارِ صَبِيٌّ رَضِيعٌ صَغِيرٌ يَحْبُو وَلَا يَقُومُ، فَعَمَدَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَحَلَّةِ إِلَى بَابِ الدَّارِ فَسَدُّوهُ! فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْهُرٍ؛ تَحَوَّلَ إِلَيْهَا بَعْضُ وَرَثَةِ الْقَوْمِ، فَلَمَّا فَتَحَ الْبَابَ وَأَفْضَى إِلَى عَرْصَةِ الدَّارِ؛ إِذَا هُوَ بِصَبِيٍّ يَلْعَبُ مَعَ جَرْوِ كَلْبَةٍ كَانَتْ لِأَصْحَابِ الدَّارِ!! فَلَمَّا رَآهَا الصَّبِيُّ حَبَا إِلَيْهَا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ لَبَنِهَا!!! فَعَلِمُوا أَنَّ الصَّبِيَّ [لَمَّا] بَقِيَ فِي الدَّارِ وَصَارَ مَنْسِيًّا، وَاشْتَدَّ جُوعُهُ وَرَأَى جَرْوَ الْكَلْبَةِ يَرْضَعُ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا سَقَتْهُ مَرَّةً أَدَامَتْ لَهُ، وَأَدَامَ لَهَا الطَّلَبُ!!.

أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ: وَلَّانِي الْقَاسِمُ خِلَافَةَ أَحْمَد بْن مَيْمُون بِنَيْسَابُور، فَنَزَلْتُ فِي بَعْضِ مَنَازِلِهَا، فَوَجَدْتُ فِي جِوَارِي جُنْدِيًّا مِنْ أَصْحَابِهِ يُعْرَفُ بِنَسِيمٍ، وَإِذَا بِكَلْبٍ لَهُ يَخْرُجُ بِخُرُوجِهِ، وَيَدْخُلُ بِدُخُولِهِ، وَإِذَا جَلَسَ عَلَى بَابِهِ قَرَّبَهُ، وَغَطَّاهُ بِدُوَّاجٍ[٦٢] كَانَ عَلَيْهِ، فَسَأَلْتُ الرَّاسِبِيَّ عَنْ مَحَلِّ الْغُلَامِ، وَكَيْفَ يَقْنَعُ الْأَمِيرُ مِنْهُ بِدُخُولِ الْكَلْبِ عَلَيْهِ، وَيَرْضَى مِنْهُ بِذَلِكَ وَلَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ؟! قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ: سَلْهُ عَنْ حَدِيثِهِ؛ فَإِنَّهُ يُخْبِرُكَ بِشَأْنِهِ.

فَأَحْضَرْتُ الْغُلَامَ، وَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي اسْتَحَقَّ بِهِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: هَذَا خَلَّصَنِي – بَعْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ – مِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ! فَاسْتَبْشَعْتُ هَذَا الْقَوْلَ مِنْهُ، وَأَنْكَرْتُهُ عَلَيْهِ! فَقَالَ لِي: اسْمَعْ حَدِيثَهُ فَإِنَّكَ تَعْذِرُنِي: كَانَ يَصْحَبُنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، لَا يُفَارِقُنِي؛ يُؤَاكِلُنِي وَيُعَاشِرُنِي عَلَي النَّبِيذِ وَغَيْرِهِ مُنْذُ سِنِينَ، فَخَرَجْنَا إِلَى الدَّيْنَوَرِ، فَلَمَّا

[٦٢] (الدُّوَّاجُ): اللِّحَافُ الَّذِي يُلْبَسُ، نَوْعٌ مِنَ الثِّيَابِ [القاموس المحيط، ولسان العرب، مادة: (دَوَجَ)].

رَجَعْنَا وَقَرُبْنَا مِنْ مَنْزِلِنَا؛ كَانَ فِي وَسَطِي هِمْيَانٌ[٦٣] فِيهِ جُمْلَةُ دَنَانِيرٍ، وَمَعِي مَتَاعٌ كَثِيرٌ أَخَذْتُهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ قَدْ وَقَفَ عَلَيْهِ بِأَسْرِهِ! فَنَزَلْنَا إِلَى مَوْضِعٍ؛ فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا! فَلَمَّا عَمِلَ الشَّرَابُ؛ عَمَدَ إِلَيَّ فَشَدَّ يَدَيَّ إِلَى رِجْلَيَّ، وَأَوْثَقَنِي كِتَافًا[٦٤]، وَرَمَى بِي فِي وَادٍ، وَأَخَذَ كُلَّ مَا مَعِي وَتَرَكَنِي وَمَضَى! وَأَيِسْتُ مِنَ الْحَيَاةِ!! وَقَعَدَ هَذَا الْكَلْبُ مَعِي ثُمَّ تَرَكَنِي وَمَضَى، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ وَافَانِي وَمَعَهُ رَغِيفٌ[٦٥] فَطَرَحَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، فَأَكَلْتُهُ! وَلَمْ أَزَلْ أَحْبُو إِلَى مَوْضِعٍ فِيهِ مَاءٌ فَشَرِبْتُ مِنْهُ، وَلَمْ يَزَلِ الْكَلْبُ مَعِي بَاقِي لَيْلِي يَعْوِي إِلَى أَنْ أَصْبَحْتُ، فَحَمَلَتْنِي عَيْنَايَ، وَفَقَدْتُ الْكَلْبَ، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ وَافَانِي وَمَعَهُ رَغِيفٌ، فَأَكَلْتُ وَفَعَلْتُ فِعْلِي فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ؛ غَابَ عَنِّي، فَقُلْتُ: مَضَى يَجِيئُنِي بِالرَّغِيفِ! فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا أَنْ جَاءَ وَمَعَهُ الرَّغِيفُ، فَرَمَى بِهِ إِلَيَّ! فَمَا اسْتَتَمَّ أَكْلُهُ؛ إِلَّا وَابْنِي عَلَى رَأْسِي يَبْكِي! فَقَالَ: وَمَا تَصْنَعُ هَا هُنَا، وَمَا هِيَ قِصَّتُكَ؟! وَنَزَلَ فَحَلَّ كِتَافِي وَأَخْرَجَنِي، فَقُلْتُ لَهُ: مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ بِمَكَانِي، وَمَنْ دَلَّكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: كَانَ الْكَلْبُ يَأْتِينَا فِي كُلِّ يَوْمٍ فَنَطْرَحُ لَهُ الرَّغِيفَ عَلَى رَسْمِهِ فَلَا يَأْكُلُهُ، وَقَدْ كَانَ مَعَكَ، فَأَنْكَرْنَا رُجُوعَهُ وَلَسْتَ أَنْتَ مَعَهُ، فَكَانَ يَحْمِلُ الرَّغِيفَ بِفِيهِ وَلَا يَذُوقُهُ وَيَخْرُجُ وَيَعُودُ، فَأَنْكَرْنَا أَمْرَهُ! فَأَتْبَعْتُهُ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْكَ.

فَهَذَا مَا كَانَ مِنْ خَبَرِي وَخَبَرِ الْكَلْبِ[٦٦]، فَهُوَ عِنْدِي أَعْظَمُ مِقْدَارًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْقَرَابَةِ!!!.

قَالَ: وَرَأَيْتُ أَثَرَ الْكِتَافِ فِي يَدِهِ قَدْ أَثَّرَ أَثَرًا قَبِيحًا!!.

---

٦٣ (**الْهِمْيَانُ**): كِيسٌ يُجْعَلُ فِيهِ النَّفَقَةُ، وَيُشَدُّ عَلَى الْوَسَطِ [المصباح المنير، مادة: (هـ م ن)].

٦٤ (**كِتَافًا**) – بِالْكَسْرِ –: شَدَدْتُ يَدَيْهِ إِلَى خَلْفِ كَتِفَيْهِ مُوثَقًا بِحَبْلٍ وَنَحْوِهِ، وَ(**الْكِتَافُ**) – بِالْكَسْرِ أَيْضًا –: الْحَبْلُ تُشَدُّ بِهِ [المصباح المنير، مادة: (ك ت ف)].

٦٥ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْهَادِي: "وَمِمَّا وَقَعَ عِنْدَنَا وَنَحْنُ صِغَارٌ: أَنَّهُ كَانَ عِنْدَنَا فِي الطَّرِيقِ كَلْبٌ أَحْمَرُ، وَأَنَّهُ جَاءَ شَخْصٌ فَدَفَعَ إِلَيْهِ رَغِيفًا (فَأَخَذَهُ) وَثَمَّ كَلْبٌ أَعْمَى كَبِيرٌ، فَجَاءَ حَتَّى دَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَجَاءَهُ كَلْبٌ فَأَخَذَهُ مِنْهُ؛ فَذَهَبَ الْأَحْمَرُ إِلَى الَّذِي أَخَذَهُ فَخَلَّصَهُ مِنْهُ، ثُمَّ جَاءَ حَتَّى دَفَعَهُ إِلَى الْأَعْمَى، وَجَلَسَ بِحِذَائِهِ يَنْظُرُهُ وَيَحْمِيهِ مِنَ الْكِلَابِ حَتَّى أَكَلَهُ!! [الاغتراب في أحكام الكلاب؛ لابن عبد الهادي].

٦٦ وَنِعْمَ الْأَخْبَارُ!.

وَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ بُرْقَانَ، قَالَ: كَانَ فِي جِوَارِنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، يُعْرَفُ بِالْخَصِيبِ[٦٧] وَمَعَهُ كَلْبٌ لَهُ جَاءَ بِهِ مِنَ الْجَبَلِ، فَوَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَارِهِ خُصُومَةٌ إِلَى أَنْ تَوَاثَبَا! فَلَمَّا رَأَى الْكَلْبُ ذَلِكَ؛ وَثَبَ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي وَاثَبَ صَاحِبَهُ! فَوَضَعَ مَخَالِيبَهُ فِي إِحْدَى عَيْنَيْهِ، وَعَضَّ قَفَاهُ! حَتَّى رَأَيْتُ الرَّجُلَ قَدْ غُشِيَ عَلَيْهِ وَدِمَاؤُهُ تَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ!!.

قَالَ بَعْضُ مَنْ يَذُمُّ الْكِلَابَ: النَّاسُ يَنَامُونَ بِاللَّيْلِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ – تَعَالَى – مَسْكَنًا، وَيَتَصَرَّفُونَ وَيُبْصِرُونَ فِي النَّهَارِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – مَسْرَحًا، وَهُوَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ!.

فَاحْتَجَّ مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: إِنَّ سَهَرَهُمْ بِاللَّيْلِ وَنَوْمَهُمْ بِالنَّهَارِ خَصْلَةٌ مُلُوكِيَّةٌ، وَلَوْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ؛ كَانَ الْمُلُوكُ بِهِ أَوْلَى، وَإِنَّمَا انْتِبَاهُهَا بِاللَّيْلِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ يَنْتَشِرُ فِيهِ اللُّصُوصُ وَيَكْثُرُ التَّسَلُّقُ وَالنُّقُوبُ وَالسُّرَّقُ مِمَّنْ إِذَا أَفْضَى إِلَى مَنْزِلِ قَوْمٍ؛ لَمْ يَرْضَ إِلَّا بِالْقَتْلِ، وَرُكُوبِ السَّوْءَةِ، وَنَهْبِ الْمَالِ!! فَهِيَ تَحْرُسُ مِنْ هَذِهِ، وَتُنَبِّهُ عَلَيْهِ صَاحِبَهُ.

أَنْشَدَنِي بَعْضُ الْأُدَبَاءِ:

تَـاهَ قَلْبِـي وَأَيْنَ مِنِّـي قَلْـبُ ... إِنَّ رَدَّ السُّـرُورِ يَا قَـوْمُ صَعْـبُ
شَرَّدَتْنِـي خِيَانَـةٌ مِنْ صَـدِيقٍ ... أَنَا مُسْتَسْلِـمٌ لَـهُ وَهُوَ حَـرْبُ
مُضْمِـرٌ لِلنِّفَـاقِ وَالْقَلْبُ فِيـهِ ... مُبْطِـنٌ بُغْضَـهُ وَبَادِيـهِ حُبُّ
قُلْتُ يَوْمًا لَهُ وَإِنْ مَضَـى مِنـ ... ـهُ فِـعَالٌ أَتَـى بِهَا: أَنْتَ كَلْبُ!
قَالَ: لِلْمَزْحِ قُلْتَ ذَا أَمْ لِثَلْبِي؟ ... قُلْتُ: لِلثَّلْبِ! قَالَ: مَا فِيـهِ ثَلْبُ!!
شِيمَـةُ الْكَلْبِ حِفْظُـهُ لِوَلِـيٍّ ... وَعَنِ الْحَـيِّ فِي دُجَا اللَّيْـلِ ذَبُّ
يَحْفَظُ الْجَـارَ لِلْجِوَارِ وَيُمْسِـي ... سَاهِـرَ الْمُقْلَتَيْـنِ يَحْنُـوهُ سَغَبُ[٦٨]

---

[٦٧] قُلْتُ: (**الْخَصِيبُ**)إِمَّا أَنْ يَكُونَ اسْمًا لِلرَّجُلِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ صِفَةً، "يُقَالُ: رَجُلٌ خَصِيبٌ، أَيْ: رَحْبُ الْجَنَابِ، كَثِيرُ الْخَيْرِ" [تهذيب اللغة، ولسان العرب، مادة: (خصب)].

[٦٨] (**السَّغَبُ**): الْجُوعُ، وَقِيلَ: لَا يَكُونُ السَّغَبُ إِلَّا الْجُوعَ مَعَ التَّعَبِ، وَرُبَّمَا سُمِّيَ الْعَطَشُ سَغَبًا [المصباح المنير، مادة: (س غ ب)، بتصرف يسير].

يَرْقُدُ النَّائِمُونَ أَمْنًا وَيُمْسِي … خَائِفًا هُلْكَهُمْ يُحَاكِيهِمْ صَبُّ
وَتَرَى الْكَلْبَ فِي الْمَهَامِهِ[٦٩] غَوْثًا … وَيُجِيبُ اللَّهِيفَ وَالنَّارُ تَخْبُو
وَتَرَاهُ يُنَابِحُ الْكَلْبَ خَوْفًا … وَإِلَى الصَّوْتِ فِي دُجَا اللَّيْلِ يَحْبُو
فَلِمَاذَا أَنْحَسْتَهُ الْحَظَّ قُلْ لِي! … لِمَ تُشِنْ حُسْنَهُ وَمَا فِيهِ سَبُّ؟!

قُلْتُ لِصَدِيقٍ لِي: تَعْرِفُ فِي هَذَا الْمَعْنَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ؛ وَأَنْشَدَنِي:

قَالَ لِي أَحْمَدُ وَأَحْمَدُ كَهْلٌ … لَيْسَ فِي النَّاسِ مِثْلَهُ اثْنَانِ
حُسْنُ خَلْقٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ وَعِلْمٌ … بَارِعٌ زَانَهُ بِنُطْقٍ لِسَانِ
هُوَ فِي الْعَيْنِ زِينَةٌ وَجَمَالٌ … وَلَدَى الشُّرْبِ زِينَةُ الْبُسْتَانِ
وَإِذَا مَا الْمَرْءُ ضَاقَ بِالْهَمِّ صَدْرًا … فَرَّجَ الْهَمَّ أَحْمَدُ الْمَرْزُبَانِ
يَا خَلِيلِي حَفِظْتُ فِي الْكَلْبِ شَيْئًا … قُلْتُ: فِي الذَّمِّ؟ قَالَ لِي: عَظِّمْ شَانِ!
قَالَ لِي: خُذْ أَخِي فَأَظْهِرْ مَقَالًا … قَدْ حَوَى مِنْ ظَرِيفِ الْمَعَانِ
فِي مَدِيحِ الْكِلَابِ مَعَ ذَمِّ قَوْمٍ … فَأَرَانِي الْعِيَانَ قَبْلَ الْعِيَانِ
قَالَ: إِنِّي أَرَاهُ أَوْفَى ذِمَامًا … مِنْ كَثِيرٍ عَرَفْتُ فِي الْإِخْوَانِ!
وَأَمِينُ الْمَغِيبِ يُلْقِي بِوَجْهٍ … وَلِقَوْمٍ مِنَ الْوَرَى وَجْهَانِ!!
شَاكِرًا لِلْقَلِيلِ غَيْرَ كَفُورٍ … وَكَفُورُ الْكَثِيرِ لِلْخِلَّانِ
حَارِسًا فِي الْحَرِيمِ يَمْنَعُ فِي اللَّيْـ … ـلِ عَنِ الْقَوْمِ سَاهِرَ الْأَجْفَانِ
مِثْلُ لَيْثِ الْعَرِينِ تَلْقَاهُ لَمَّا … حَلَّ فِي جَوْفِ جَيْشِهِ شِبْلَانِ
عَارِفٌ بِالْجَمِيلِ يُغْضِي حَيَاءً … حِينَ تَلْقَاهُ لِلْفَتَى عَيْنَانِ
صَابِرٌ مَانِعٌ حَفُوظٌ أَلُوفٌ … دَافِعٌ مَانِعٌ بِغَيْرِ امْتِنَانِ
أَلْيَنُ الْخَلْقِ مِعْطَفًا لِحَمِيمٍ … وَلِأَعْدَائِهِ كَحَدِّ السِّنَانِ
وَأَرَى النَّاسَ غَيْرَ مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ … خُلِقُوا كَالذُّبَابِ وَالثِّيرَانِ!

[٦٩] (**الْمَهَامِهُ**): جَمْعُ الْمَهْمَهُ وَالْمَهْمَهَةُ؛ وَهِيَ: الْمَفَازَةُ الْبَعِيدَةُ، وَالْبَلَدُ الْمُقْفِرُ [القاموس المحيط، بتصرف يسير].

وَمِمَّنْ أَفْسَدَ الصَّدِيقُ بِحُرْمَتِهِ فَأَقَامَ الْكَلْبُ بِنُصْرَتِهِ؛ مَا أَخْبَرُونَا عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيِّ، يَرْفَعُهُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شِمْرٍ، قَالَ: كَانَ لِلْحَارِثِ بْنِ صَعْصَعَةَ نُدْمَانٌ لَا يُفَارِقُهُمْ، شَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لَهُمْ، فَبَعَثَ أَحَدُهُمْ بِزَوْجَتِهِ فَرَاسَلَهَا! وَكَانَ لِلْحَارِثِ كَلْبٌ رَبَّاهُ، فَخَرَجَ الْحَارِثُ فِي بَعْضِ مُتَنَزَّهَاتِهِ وَمَعَهُ نُدَمَاؤُهُ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ(!) فَلَمَّا بَعُدَ الْحَارِثُ عَنْ مَنْزِلِهِ؛ جَاءَ نَدِيمُهُ إِلَى زَوْجَتِهِ فَأَقَامَ عِنْدَهَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ!! فَلَمَّا سَكِرَا وَاضْطَجَعَا، وَرَأَى الْكَلْبُ أَنَّهُ قَدْ ثَارَ عَلَى بَطْنِهَا؛ وَثَبَ الْكَلْبُ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا!! فَلَمَّا رَجَعَ الْحَارِثُ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمَا؛ عَرَفَ الْقِصَّةَ! وَوَقَفَ نُدَمَاؤُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَمَازَالَ يَرْعَى ذِمَّتِي وَيَحُوطُنِي ... وَيَحْفَظُ عِرْسِي[٧٠] وَالْخَلِيلُ يَخُونُ!

فَوَا عَجَبًا لِلْخِلِّ يَهْتِكُ حُرْمَتِي! ... وَيَا عَجَبًا لِلْكَلْبِ كَيْفَ يَصُونُ!!

قَالَ: وَهَجَرَ مَنْ كَانَ يُعَاشِرُهُ، وَاتَّخَذَ كَلْبَهُ نَدِيمًا وَصَاحِبًا؛ فَتَحَدَّثَ بِهِ الْعَرَبُ! وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَلْكَلْبُ خَيْرٌ مِنْ خَلِيلٍ يَخُونُنِي ... وَيَنْكِحُ عِرْسِي بَعْدَ وَقْتِ رَحِيلِي!

سَأَجْعَلُ كَلْبِي مَا حَيِيتُ مُنَادِمِي ... وَأَمْنَحُهُ وُدِّي وَصَفْوَ خَلِيلِي!

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كَانَ لِمَالِكِ بْنِ الْوَلِيدِ أَصْدِقَاءُ لَا يُفَارِقُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَنْهُمْ، فَأَرْسَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى زَوْجَتِهِ فَأَجَابَتْهُ! وَجَاءَ لَيْلَةً وَاسْتَخْفَي فِي بَعْضِ دُورِ مَالِكٍ عِنْدَ امْرَأَتِهِ، وَمَالِكٌ لَا يَعْلَمُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ! فَلَمَّا أَخَذَ فِي شَأْنِهَا(!) وَثَبَ كَلْبٌ لِمَالِكٍ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا!! وَمَالِكٌ لَا يَعْقِلُ مِنَ السُّكْرِ! فَلَمَّا أَفَاقَ وَقَفَ عَلَيْهِمَا، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

كُلُّ كَلْبٍ حَفِظْتَهُ لَكَ أَرْعَى ... مَا بَقَى لَوْ بَقِيَ لِيَوْمِ التَّنَادِ

مِنْ خَلِيلٍ يَخُونُ فِي النَّفْسِ وَالْمَا ... لِ وَفِي الْعِرْسِ بَعْدَ صَفْوِ الْوِدَادِ

وَقَالَ آخَرُ:

وَإِذَا قُلْتُ وَيْكَ[٧١] لِلْكَلْبِ اخْسَأْ ... لَحَظَتْنِي عَيْنَاكَ لَحْظَةَ تُهْمَهْ

---

[٧٠] عِرْسُ الرَّجُلِ – بِالْكَسْرِ –: امْرَأَتُهُ، وَقَدْ يُقَالُ لِلرَّجُلِ عِرْسٌ أَيْضًا، وَالْعُرْسُ – بِالضَّمِّ –: الزِّفَافُ، وَالْجَمْعُ أَعْرَاسٌ [المصباح المنير، مادة:(ع ر س)].

[٧١] (وَيْكَ) كَلِمَةُ زَجْرٍ، أَوْ بِمَعْنَى وَيْل.

أَتَــرَى أَنَّنِـــي حَسِبْتُـكَ كَلْبًا؟!   أَنْتَ عِنْدِي مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ هِمَّةْ!!

ذَكَرُوا أَنَّ صَعْصَعَةَ بْنَ خَالِدٍ كَانَ لَهُ صَدِيقٌ لَا يُفَارِقُهُ، فَجَاءَ يَوْمًا فَرَآهُ قَتِيلًا عَلَى فِرَاشِهِ مَعَ امْرَأَتِهِ! فَأَيْقَنَ بِخِيَانَتِهِمَا؛ فَقَالَ:

الْغَدْرُ شِيمَــةُ كُلِّ نَذْلٍ سِفْلَــةٌ   وَالْكَلْبُ يَحْفَظُ عَهْدَكَ الدَّهْرَا

فَدَعِ اللِّئَامَ وَكُنْ لِكَلْبِكَ حَافِظًا   فَلْتَأْمَنَـنَّ الْغَـدْرَ وَالْمَكْــرَا

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْدِقَائِي، قَالَ: خَرَجْتُ لَيْلَةً وَأَنَا سَكْرَان، فَقَصَدْتُ بَعْضَ الْبَسَاتِينِ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَمَعِي كَلْبَانِ كُنْتُ رَبَّيْتُهُمَا، وَمَعِي عَصَا، فَحَمَلَتْنِي عَيْنِي، فَإِذَا الْكَلْبَانِ يَنْبَحَانِ وَيَصِيحَانِ، فَانْتَبَهْتُ بِصِيَاحِهِمَا فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أُنْكِرُهُ! فَضَرَبْتُهُمَا وَطَرَدْتُهُمَا وَنِمْتُ! ثُمَّ عَاوَدُوا الصِّيَاحَ وَالنُّبَاحَ، فَأَنْبَهَانِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أُنْكِرُهُ – أَيْضًا –؛ فَوَثَبْتُ إِلَيْهِمَا وَطَرَدْتُهُمَا! فَمَا أَحْسَسْتُ إِلَّا وَقَدْ سَقَطَا عَلَيَّ يُحَرِّكَانِي بَأَيْدِيهِمَا وَأَرْجُلِهِمَا كَمَا يُحَرِّكُ الْيَقْظَانُ النَّائِمَ لِأَمْرٍ هَائِلٍ!! فَوَثَبْتُ؛ فَإِذَا بِأَسْوَدٍ سَابِحٍ قَدْ قَرُبَ مِنِّي! فَوَثَبْتُ فَقَتَلْتُهُ وَانْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي، فَكَانَ الْكَلْبَانِ – بَعْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ – سَبَبًا لِخَلَاصِي!.

وَحَدَّثَنِي صَدِيقٌ لِي: أَنَّهُ كَانَ لَهُ صَدِيقٌ مَاتَتِ امْرَأَتُهُ وَخَلَّفَتْ صَبِيًّا، وَكَانَ لَهُ كَلْبٌ قَدْ رَبَّاهُ، فَتَرَكَ يَوْمًا وَلَدَهُ فِي الدَّارِ مَعَ الْكَلْبِ وَخَرَجَ لِبَعْضِ الْحَوَائِجِ، وَعَادَ بَعْدَ سَاعَةٍ، فَرَأَى الْكَلْبَ فِي الدِّهْلِيزِ[٧٢] وَهُوَ مُلَوَّثٌ بِالدَّمِ وَجْهَهُ وَبُوزَهُ كُلَّهُ؛ فَظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ ابْنَهُ وَأَكَلَهُ!! فَعَمَدَ إِلَى الْكَلْبِ فَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الدَّارَ!! ثُمَّ دَخَلَ الدَّارَ، فَوَجَدَ الصَّبِيَّ نَائِمًا فِي مَهْدِهِ وَإِلَى جَانِبِهِ بَقِيَّةُ أَفْعَى قَدْ قَتَلَهُ الْكَلْبُ وَأَكَلَ بَعْضَهُ، فَنَدِمَ الرَّجُلُ عَلَى قَتْلِهِ أَشَدَّ نَدَامَةٍ!! وَدَفَنَ الْكَلْبَ؛ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَلْيَكُنْ هَذَا آخِرُ مَا أَرَدْنَا إِيرَادَهُ فِي الرِّسَالَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَبَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



[٧٢] (**الدِّهْلِيزُ**): الْمَمَرُّ الْمُمْتَدُّ مَا بَيْنَ بَابِ الدَّارِ وَوَسَطِهَا، وَالْجَمْعُ: (الدَّهَالِيزُ).